

دير القديس أنبا مقار  
برية شيهيت

أبونا متى المسكين  
من الطفولة الملائكية  
إلى  
الشيخوخة المستنيرة

## نبذة مختصرة عن حياة الأب متى المسكين

- وُلد عام ١٩١٩.
- تخرج من كلية الصيدلة عام ١٩٤٤.
- اشتغل في المهنة حتى سنة ١٩٤٨.
- حيث ترهب في دير القديس أنبا صموئيل المعترف في الصعيد [اختار هذا الدير لأنه أفقر دير وأبعد دير عن العمران وأكثرهم عزلة].
- ثم قام بزيارة عام ١٩٥١ إلى دير السريان - وادي النطرون (من ١٩٤٨-١٩٥٠). وهناك بدأ يخطُّ أولى صفحات أهم وأول كتبه وهو كتاب: "حياة الصلاة الأرثوذكسية" (الذي صدر في طبعته الأولى عام ١٩٥٢ وطُبع في مطبعة دير السريان، ثم نُقِّح وزيد عام ١٩٦٨).
- وهناك في دير السريان تقبَّل نعمة الكهنوت رغماً عنه.
- في عام ١٩٥٤ اختاره بابا الإسكندرية الأنبا يوساب الثاني (١٩٤٦-١٩٥٦) وكيلاً له في مدينة الإسكندرية بعد انتدابه لدرجة إيغومانس "قمص" حتى منتصف عام ١٩٥٥ حيث آثر العودة إلى مغارته.
- في أوائل عام ١٩٥٦ رجع إلى ديره القديم (الأنبا صموئيل) وتبعه إلى هناك تلاميذه الذين تركزوا على يديه في دير السريان.
- في عام ١٩٥٩ عاد هو وتلاميذه إلى دير السريان استجابة لطلب البابا الجديد البابا كيرلس السادس (١٩٥٩-١٩٧١). لكنه آثر أن يرجع إلى حياة حياة الوحدة والهدوء الكامل، فذهب هو وتلاميذه إلى صحراء وادي الريان

(تبعد ٥٠ كيلو عن أقرب قرية مأهولة بالسكان في محافظة الفيوم) واستمروا هناك ما يقرب من ١٠ سنين.

- في سنة ١٩٦٩ دعاه البابا كيرلس السادس مع تلاميذه الرهبان (١٢) راهباً للانتقال إلى دير القديس أنبا مقار. ومن هذا التاريخ بدأت النهضة العمرانية والنهضة الرهبانية الجديدة الملازمة لها.

- ظل يوالي تقديم مؤلفاته حتى قُرب يوم نياحته، يُثري بها الكنيسة والعالم حيث تُرجمت كتاباته لكثير من اللغات.

- تنيح فجر الخميس ٨ يونيه ٢٠٠٦. ودُفن في مغارة في صخرة ضمن الأسوار المحيطة بأرض الدير، كان قد اختار مكانها قبل نياحته بثلاث سنوات.

## طفولة ملائكية

والده مُربّي فاضل ومجاهد قبطي صميم:

يسرد أبونا متى المسكين ذكريات طفولته هكذا:

”نشأتُ في أسرة محافظة، والدي إسكندر يوسف كان موظفاً بالسكة الحديد، قبطي صميم يعتز بقبطيته، له ميراث ضخم في الصفات والعادات القبطية، بل أستطيع أن أقول إن لها رائحة المصرية القديمة، فإني أحفظ حتى الآن مئات من تعبيراته وأمثاله كلها ملائمة بالكلمات القبطية والمزاج الفرعوني. شخصية مُهابة إلى أقصى حد في العائلة وفي العمل بين الموظفين زملائه، والمفتشين، رؤساؤه يخشونه ويحترمونه ويحبونه معاً، عميق في تفكيره، حاد في رأيه، سريع في حكمه على الأمور دون أن تخونه الحقيقة قط.

- كان يجلس إلينا كل مساء تقريباً بقدر ما كانت تسمح به وريثاته الليلية، يحكي لنا قصص حياته وشبابه ورجولته وكفاحه، كثير الأمثلة والنوادر، مزاحه معنا في أدب وحشمة وديمقراطية تلقائية، لا يكف عن المداعبة والتفريع لنا (كأولاده)، عندما يشذ منا أحد عن اللياقة أو يهمل في واجباته المدرسية دون أن يعنف أو يعاقب (إلا الصغار وفي الضرورة القصوى جداً، فالخزانة فوق الشماعة محفوظة للضرورة). كانت له مكتبة خاصة في غرفته، ملائمة بالكتب القيمة، بدّدها إخوتي الذين يكبروني، ولكن أذكر منها كتاباً واحداً كثيراً ما كان يحدثنا منه وعنه، اسمه ”التربية الاستقلالية“، لأحد الأدباء الفرنسيين الكبار لا أتذكر اسمه.

- وكان يستمتع بدوره في الجلوس بين أولاده خاصة في المناسبات

كالأعياد، ولم يكن يكف مَعِينَهُ من القصص. ولا ندري كيف كان يستوعب منها هذا القدر، لا في الكمية فحسب بل في التنوع، فكل حدث يحدث دون رضائه ومزاجه ينقده بمثل لاذع أو قصة ذات مغزى، ولكن المدهش أنه إذا تكرر الحادث لا تتكرر القصص بل يتحفنا بالجديد دائماً ولا تخلو القصة من تقريع وتوبيخ.

- وكان هذا الوالد يتقن كل مهنة، فلم نكن نستحضر أي مهنيّ، فالنجارة يقوم بها ويحتفظ بكل أدواتها، وكذلك أعمال السباكة، وكان يتقن فن الصيد ويصنع البارود ويملأ الخرطوش على يديه، وكان فارساً يتقن ركوب الخيل، لذلك فكان تنوع قصصه مبدعاً حقاً، وكفياً أن يملأ فراغ فكري وتصوري، فكانت تلدُّ لي الحياة في ظل هذا الخصب والغنى في المثل الوحيد الموضوع أمامي وأنا ما زلت طفلاً أو فتى.

### **اهتمامه وخدمته المخلصة لوالدتي في مرضها:**

- ولكن أعجب ما أحفظ به لهذا الوالد في ذاكرتي هو احترامه الجسم لوالدتي وهي مريضة، وكيف كان يخدمها أحياناً أو يحملها على ذراعيه ليجلسها في مكان أفضل يريحها، أو يحملها إلى سطح المنزل لتغيير المناظر وتروّج عن نفسها بالهواء والشمس والزهور التي كنا نستزرعها خصيصاً لزيد من بهجتها.

- أما والدته التي كانت لا تكفّ عن الصلاة بالأجبية في مواعيدها مع السجود (الميطانية) المستمر فقد علّمت ابنها منذ الصغر أن يصليّ ويسجد، كما علّمت أباه أن يصلي هو أيضاً بالأجبية.

## خبرة الطفولة كانت خبرة صلاة:

١. ”عندما أتكلم عن وعيي في طفولتي لم أقصد أنني كنتُ أضرب مطانيات أو أصوم انقطاعياً حتى الغروب أو أسهر. ولكن أفراد الأسرة وضعوني في موقف صلاة، فكنْتُ أصلي بقلب طفل. وقد ذكرت ذلك لكي أصل إلى غاية هي: كيف تحب الله وتصلّي له من كل قلبك وقدرتك. صدقوني أن هذا كله تم بالحرف الواحد: عندما كنْتُ أصلي، كان شعوري وكياني كله كطفل أمام الله. فلم يكن لي عقل غير ذلك الذي يصلّي، وليس لي إحساس داخلي غير ذلك الذي يصلّي، فكنْتُ أصلي بكل قوتي وكل قدرتي. هل هذا صعب؟ فإن لم يكن صعباً على طفل فهل يكون صعباً على قامة رجل؟ فلننفض عنا كل ما في القلب والفكر وكل ما في النفس بكل ما في قدرتنا حتى ندخل في حضرة الله في الصلاة، فيكون كل العقل والفكر والإحساس للرب وحده“.

٢. كانت أسرة "يوسف اسكندر" فقيرة في الدنيويات ولكنها غنية بالإيمان والتقوى (على حدّ تعبيره هو نفسه)، إذ كان أبواه يعيشان في مخافة الله والثقة الكلية به. وقد تشرب من والديه حياة التقوى منذ طفولته كما روى بنفسه قائلاً:

- ”عندما كنْتُ طفلاً صغيراً (٤-٥ سنوات، أي نحو سنة ١٩٢٤) - وأنا أذكر وأعي جيداً ما أقوله، لأن إدراكي كان كاملاً ووعيي مشهوداً له من الأسرة - أذكر دقائق الأمور، إذ كانوا يأتون بي في تلك السن المبكرة عندما توجد مشكلة أو ضيقة، ويضعوني أمامهم لأصلي، ولكني ما كنْتُ أعرف أن أصلي. ويقولون لي: قل يا حبيبي وانا «أبانا الذي في السموات»، فأقول، ثم

«ليتقدس اسمك»، فأقول. وهكذا. ثم يقولون لي: قل: يا رب اعمل كيت وكيت بخصوص الموضوع الفلاني، فأقول“.

- ”كذلك إذ كان بيتنا فقيراً ولم توجد في ذلك الزمان أفران كثيرة، فكنا نحبز الخبز في البيت، وكان يأتي الدقيق من الطاحونة وهو ساخن في مقاطف، فكانوا يوقفوني أمام المقطف ويمسكون يدي - وطبعاً كان حجم يدي كلها مثل أحد أصابعهم - ويضغطون بها داخل الدقيق وهم يعملون صلياً على القفة، ولم يأبھوا بسخونة الدقيق التي كانت تلسعني، فلا أقدر أن أتكلم لأنني أصلي. وكنتُ أشعر في ذلك الوقت برهبة عجيبة، لأن أبي ورائي وأُمِّي وإخوتي السبعة واقفون ورائي، وبينما كنتُ أصلي كانوا يتكلمون بصوت منخفض، وكنتُ أفهم قليلاً على قدر سَيِّ أن الموضوع خطير وأن الأسرة في ضيقة، وأن الأمر مرفوع إلى الله على لساني، فلم يكن أحد يصلِّي ورائي. كانت تهزني رهبة شديدة، إذ كنتُ أشعر برهبة شعوراً عجيباً“!

### قدوة الأم المنحنية الساجدة بالصلاة!

يسرد أبونا متى المسكين دور والدته في تشبُّعه منذ صغره بحياة الصلاة:

- كانت والدتي متدينة جداً بصورة لا يصدقها عقل، فكانت وقبل أن تمرض تدخل غرفة خاصة، وكنت أتمسك بملابسها بإصرار حتى تسمح لي بالدخول معها. وكانت تظل واقفة لعدة ساعات تصلي وتسجد، ولا تكفُّ عن السجود مئات المرات، وكنت أحاول أن أسجد معها تقليداً، بل العجيب أني كنت أحس أن هذا ضروري طالما أُمِّي تسجد فيلزم أن أسجد معها،

ولكن قواي كانت تخونني فأقف صامتاً أتأملها وهي تقوم وتسجد كالساقية دون أن تكل، لعدة ساعات، وفي يدها سُبُحَة وصليب. وما هي الصلاة؟ كان أمراً يحير عقلي، ولكن كان يملأني شعور عجيب بالرغبة الملحة كل مرة لأصلي معها، فكنت أترقبها بانتباه شديد حتى تدخل الغرفة، فيطير قلبي من الفرح حينما تسمح لي بالدخول معها، وأبدأ أسجد!!

- ماتت والدي سنة ١٩٣٤ بعد سفري إلى الإسكندرية بعد مرض عضال ”فالج“ = ”شلل نصفي“ دام معها ٧ سنوات طوال وصرنا نخدمها أثناءها. ولم تتوقف في هذه السنوات عن الصلاة، فكانت بالرغم من ذلك تقوم في نصف الليل تصلي وهي جالسة لأنها كانت لا تستطيع أن تقف أو تتحرك ولا حتى تنطق بأية كلمة إلا كلمة واحدة هي أقدم كلمة عَرَفَها لسان بشري وهي كلمة ”كيريايصون“، فكانت تردها مئات المرات، وكانت تصلي السبع السواعي التي للنهار والليل في مواعيدها بهدوء، لم تشكو ولم تتذمر، وكنا نحترمها أشد الاحترام ونثق في صلواتها التي نطلبها جداً أيام الامتحانات، كما أضفت على الأسرة كلها التقوى وروح الصلاة.

- وفي يوم من الأيام، عاد والدي إلى البيت. وكان يعمل في ورديات ليلية، ثم يعود للبيت في منتصف الليل لينام. أما هي فكانت تقوم الساعة ١٢ منتصف الليل أو الساعة الواحدة وتصلي صلاة نصف الليل وهي على السرير. فكانت تمسك المسبحة فتقع منها أحياناً فيُصدر صوت وقوعها صدى على الأرض مما يزعج والدي بينما هو يريد أن ينام. ففي مرة قام لكي يزعق لها أن تنام، وإذا به يرى الصليب في يدها منوراً بصورة مشعة جداً، ففزع وسكت.



- وفي الصباح نادى علينا وقال لنا: شوفوا أمكم، ما حدث يكلمها أبداً. تركوها تصلي كما تريد. وخصّص لها غرفة لتصلي فيها كما تريد. ودخلته مخافة، فاشتري أجبية وبدأ هو الآخر يصلي صلوات الساعات مثل أي شاب في مدارس الأحد. هذا حدث حوالي عام ١٩٢٨ أو ١٩٢٩.

ويسرد أبونا متى المسكين بعد رهبنته تأثير هذه الطفولة الملائكية في حياته وجهاده الروحي:

- ”أقول لكم بصدق وإخلاص، إنني بعد أن جاهدت كثيراً جداً شعرت أخيراً أنني أرجع مرة أخرى للوضع الأول والخبرة الأولى التي اكتسبتها (في أيام الطفولة) بضخامة متناهية، ثم انفكت عن وعيي، وابتدأت أخيراً أخذها مرة أخرى من جديد. فالحب الإلهي، يا أحبائي، لا ينجح فيه إلا الأطفال، ولا يمكن لإنسان أن يصلي من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره وقدرته إلا إذا رجع إلى الطفولة“.

## فترة الشباب والدراسة الجامعية شهادة حياة للرب يسوع

### نزوعه منذ شبابه لحياة التأمل:

”كنت أحتلس وقت الظهيرة بينما الكل نائمون بعد تناول طعام الغداء، وأخرج من المنزل وأذهب إلى شارع البحر (في المنصورة)، وهو قريب من المنزل، وأسير على كوبري طلخا (الذي يربط المنصورة بمدينة طلخا)، وأقف في منتصفه تماماً أتأمل النيل مدة طويلة، وأسير على ضفافه وأنا محمّل بمشاعر غريبة تربط بين الصلاة والسجود (التي تصنعها والدته) وبين الطبيعة التي أمامي: البحر، الشاطئ، الأشجار الجميلة، الفلاحون عائدون من الأسواق! وحينما أسرد الآن قصة وقوفي على منتصف الكوبري، ورؤيتي للنيل، وهذا طبعاً في فصل الصيف والنيل بلغ أقصى ارتفاعه، وجريانه، ولونه الغرياني (لون الطمي الذي يأتي معه)، فأنا الآن أحس بنفس المنظر موجوداً داخلي، المنظر بكل ظروفه وملابساته الدقيقة جداً، ووقوفي لأكثر من ساعة ألاحظ نفس المنظر وأنا في غاية السعادة والسرور، وفجأة أحس أن المنظر دخل أعماقي وشدّ وجودي، فلم أكن أتحرك من مكاني، وينتابني شعور وكأني لست على الكوبري، بل أهيّم بروحي على وجه النيل وأحتضنه كله، وأحس بأنه عملية شاقة تجري داخلي، فأظل مستسلماً لها. وعندما تنتهي، أتنهّد (أخذ نفساً عميقاً عميقاً)، وأبدأ في العودة. ولكن في رجوعي أحس أني مشدود إلى المنظر والنيل والأشجار على الضفتين، فلا أقوى على مقاومة الإغراء للخروج في اليوم التالي. وهكذا كل يوم في نفس الميعاد، بالرغم من تدقيق إخوتي

وعدم احترامهم لرغبتى فى التَّنَزُّه خارج المنزل.

- كنت أحياناً أذهب إلى حديقة ”شجرة الدر“ غالباً مع أختى أو مع أخى الأكبر أو الأصغر. وكنت أشعر أيضاً بالبهجة الفائقة نحو الزهور والأشجار الجميلة، ولكن ليس كمنظر النيل، منظر النيل كان يمتلكنى وأمتلكه. والآن أستطيع أن أُعلِّل هذا الشعور، لقد كانت روح أسلافى تسرى عبْر الطبيعة والأرض والنيل والتراب لتتسلل فتستقر فى أعماقى.

- ما هذه الحياة؟ وما قيمة هذا كله؟ لم يكن قد تفتَّح وعيى على الصلة المباشرة بالله، ولكن كنتُ أحسُّ إحساساً يقينياً جداً بأنَّ َ ليست هذه هي كل الحياة!! أنا ينقصنى شيء ما، والحياة التى أمامى ينقصها شيء ما. ما هذا الشيء؟ هل هو الذى تجده أمى داخل الغرفة وهى تصلى وتسجد؟؟ هل هو الذى يقولون إنه الذى يذهبون من أجله إلى الكنيسة؟ وأين يوجد الله الآن؟! وهل الله يعرفنى؟ وأحياناً كان يبلغ بى التفكير فى هذا إلى حدِّ الهم.

- كنت أستمع جداً فى أعماقى بارتفاعى فوق فواصل الماضى وأتجاوزها. وقليلًا قليلًا ويوماً بعد يوم ترسَّخ فىَّ إيمان لا يتزعزع أن الماضى جزءٌ حيٌّ من الحاضر، بل إنما أنا ماضٍ يتحرك فى عمق الحاضر، فأشقُّ طريقى نحو المستقبل. فقط يلزم أن يغتسل الماضى جيداً فى الحاضر حتى أتهيأ لمستقبل أفضل.

### **أمانته للعلم قاداته إلى معرفة الإنجيل والمسيح:**

قال الأب متى المسكين عن حياته كطالب فى حديث له لبعض طلبة كلية الطب:

- ”عندما كنتُ أدرس - طبعاً أنتم تعرفون أنني صيدلي من زمان، لأن الصيدلي اليوم لا يحصل شيئاً من العلم، لأن بكالوريوس اليوم يعادل الابتدائية أيام زمان! - كان في الكلية أمين مكتبة اسمه "ناصح" سنة ١٩٣٩، وهو إنسان طيب ولطيف. وكنتُ أستعير من المكتبة عشرة أو عشرين كتاباً وأعطيته آخر الشهر جنيهاً أو جنيهين. وكنتُ أقرأ فيما يخص مهنتي وغيرها وفي كل شيء. وكنتُ أجد منتهى السعادة في ذلك. ففي العلم الذي يخصني كنتُ أقرأ خمسة أو ستة كتب ليست مقررة، وذلك بسبب لذة العلم. وأنا أحتفظ حتى اليوم بكل ما تعلمته في الفرع الذي درسته والفروع الأخرى. فكان العلم سعادة في ذاته، ثم تحولت السعادة إلى معرفة الإنجيل والمسيح. فإن لم تستمد اليوم راحتك وسلامك وسعادتك من مصدرها الحقيقي السماوي، أي المسيح والإنجيل، فلن تجد نفسك، أو كما يعبرون عن ذلك: تجد ذاتك في ضياع، غير قادر أن تحقق ذاتك. لأن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاته إلاً بالبناء، أي أن تبني ذاتك شخصياً. والذي لا يقدر أن يبني نفسه على الإنجيل والمسيح لا يمكنه أن يشعر بالاستقرار والسعادة“.

**شهادة من زميل قديم له عن أمانته:**

**÷ الغش حرام يا سيادة المُعيد × :**

- جاء مرةً لزيارة دير أنبا مقار الدكتور "طبوزاده" الزميل القديم لأبينا الروحي في الدراسة وقال هذا الصيدلي:

- ”لقد كان الأب متى زميلاً لي في الكلية. وفي امتحان السنة النهائية كانت لدينا مادة عملية صعبة جداً والقليلون ينجحون فيها. ولشفقة المعيد علينا، وكان غير مسيحي، كان يسأل كل طالب على حدة في هذه المادة

الصعبة، وعندما تتعسر عليه الإجابة كان المعيد يلقّنه الإجابة. ولما جاء دور يوسف اسكندر وسُئل كالباقين ابتداءً يفكر لكي يُجيب على السؤال، ولكن المعيد لَقَّنه الإجابة مثل الآخرين، وإذ به يُفاجأ بصيحة أربكته، إذ قال له يوسف: الغش حرام يا سيادة المعيد، أنا أنجح بمجهودي وحده! فقال له المعيد باستنكار: روح يا شيخ يعني ها يعملوك قسيس؟! واستطرد الدكتور طبوزاده قائلاً: ”وكان الله كان يتكلم على فم ذاك المعيد، وها قد تحققت نبوءته!“

### بداية عهده مع الله أثناء حياته الدراسية:

قال أبونا متى المسكين عن بداية عهده مع الله أثناء حياته الدراسية:

- ”في بدء حياتي العلمانية سنة ١٩٣٩، دخلتُ الكنيسة لأول مرة وسألت: ’إيه دول؟‘ فقالوا لي: ’دول مدارس الأحد‘. وكانت مدارس الأحد قد تأسست منذ سنتين أو ثلاث سنين فقط ولم تكن معروفة من قبل. فجلستُ لكي أرى ماذا تكون مدارس الأحد هذه. وأنا كنتُ ذاهباً في الأصل لكي أقابل زميلاً لي كان قد استعار مني كراسة، حيث إنني ذهبتُ إلى بيته ولم أجده وقالوا إنه في الكنيسة. ولما وجدتُ أناساً يتكلمون كلاماً روحياً جلستُ ووجدتُ أن الآيات التي يرددونها حلوة ورنانة.

- وأنا كنتُ قارئ إنجيل من صغري، أي أُنِي منذ أن عرفتُ نفسي كنتُ أقرأ الإنجيل وأخططُ تحت الآيات بالأحمر. ولكنني وجدتُ أنهم يقولون الآية بجدية وقوة وشجاعة، ففرحتُ وصار الإنجيل هكذا عظيماً في عيني. والذي يعظ كان محامياً حديث التخرج اسمه ”وهيب زكي سوربال“ (أبونا صليب سوربال

بالجيزة بعد ذلك، وهو الذي اشترك في المصالحة بين أبينا الروحي والبابا كيرلس السادس عام ١٩٦٩. وقد تنيح يوم ٢ سبتمبر ١٩٩٤). وبعد العظة العظة قالوا ترتيلة، وكنت عمري ما سمعت ولا اشتركت في ترتيل، بل كنت طول عمري معتكفاً وحدي، وأذهب إلى الكنيسة لأتناول فقط كل شهرين أو ثلاثة، وكان القسيس معروفاً لدينا، ولكنه لم يكن يسألني عما أفعله في حياتي. وكانت الترتيلة هي: "احفظ حياتي ليكون تكريسها يا رب لك، واحفظ زماني شاكرًا فيه دوماً عملك، واحفظ يدي محركاً لها بحبك العظيم، واحفظ رجلي للسير في الطريق المستقيم...". فوجدت أن كلامها لذيذ ودخلت في قلبي وأخذتها أنا بجديّة. فسألتهم: "هل يمكنني أن أرى هذه الترتيلة؟" فأعطاه لي أحدهم وأخذتها معي إلى البيت وقرأتها مرة ثانية ولكنني لم أعرف كيف أرددها باللحن لأنني لا أعرف أن أحفظ تراتيل.

– "كررت كلمات الترتيلة عدّة مرات: "احفظ حياتي ليكون تكريسها يا رب لك". ثم ركعت وقلت: "يا رب، احفظ حياتي ليكون تكريسها لك. اسمع: أنا لك!" وهكذا صارت هي ترتيلة حياتي كلها! فإما أن تأخذ الإنجيل بجديّة، أو تأخذه مثل التراتيل التي يحفظونها بأوزان وألحان، أو تحفظ الآيات للمناسبات والمواعظ لكي تكون واعظاً قديراً، وعندما تخدم تكون رجلاً حافظ آيات! أنا لم أحفظ تراتيل سوى بيتين أو ثلاثة من أول هذه الترتيلة، وأخذت كلماتها بجدّ."

– "وقد أعجبني الأخ وهيب زكي (القمص صليب سوريال فيما بعد) لأنه كان يتكلم بحماس، لأنه كان محامياً ولم أعرف ذلك، فكان يعظ كمن يترافع في قضية، فدخل الإنجيل في ذهني وصار عظيماً، ودخلت آياته في قلبي."

- ومنذ ذلك الحين صمّم أبونا متى أن يكرّس حياته وكتب على أول صفحة من إنجيله الصغير المهدى له من مدارس أحد الجيزة: ”ها عهدي ودعائي أن أخدم بيعة أجدادي“.

### **أمانته في حفظ الطهارة وهو شاب في وسط العالم:**

ومثل يوسف الصديق العفيف الطاهر، كان سميّه ”يوسف“ اسكندر حافظاً للعفة والطهارة إلى أبعد حدّ. فقد قال عن تلك الفترة من حياته:

- ”عندما كنتُ طالباً علّقتُ أمامي على المكتب آية لا زلتُ أذكرها وكانت سبب بركة لي في حياتي وهي: «طوبى للإنسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم» (أم ٨: ٣٤). فكنتُ، يعلم الله، يستحيل أن أذاكر إلاً وأصليّ أثناء مذاكرتي ٢٠ أو ٣٠ مرة، في كل مرة دقيقة أو دقيقتين، فأغلق الكتاب وأقف وأصليّ قائلاً: ”يا رب، أعطني بصيرة، أريد أن أعيش لك. إنني لا أريد العالم، وهذا العلم كله سوف أعطيه لك في النهاية. نفّسي فيك أنت يا رب، فقط لا تسمح لي أن أكون إنساناً مهملاً أو كسولاً. لأن الكل يعرف أنني سائر وراءك، فإذا رسبتُ يقولون عني إنني إنسان خايب والذي يسير وراء الرب يبقى خايب، لا تسمح بذلك، بل أعطني بصيرة. وأنا أريد أن أكون شاباً طاهراً مثل يوسف الصديق وسوسنة العفيفة. هل يصعب عليك يا رب أن تجعلني طاهراً؟ أنا أطلب منك أن تعطيني ذلك““. وقد أعطاه الله ذلك كما توضحه القصة التالية.

### **القدوة في الطهارة أمام غير المسيحيين:**

- ”كانت سمعتي في الحي الذي أسكن فيه في منيل الروضة سمعة طيبة.

فكانت صاحبة المنزل (التي تسكن في الدور الرابع وأنا أسكن في الدور الثالث) تتبرع لتحكي للجيران عن سلوكي وأخلاقي، فكانوا يزدادون احتراماً لي، وكنت في الحقيقة أحرص على هذه السمعة لأن الطلبة في هذا الحي كانت لهم سمعة في غاية الرداءة. وكانت عادي أن أخرج للتمشّي على شاطئ النيل بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة والنصف يومياً. ويأتي النيل مرة أخرى بعظمته وجبروته وجريه المتجدد الذي لم يستهلكه الزمن قط، كنت أتأمله أثناء سيرّي وأذهب إلى كوبري عباس، وأقف في منتصفه، وأعود إلى نفس المشاعر الأولى أيام كنت في المنصورة ابن سبع سنوات، والماضي يتجسم أمامي حقيقة واقعة، ثم فجأة يتلاشى الفارق الزمني من إحساسي وأقف بنفس مشاعري الأولى، وحينئذ أدرك في أعماقي شعوراً آخر هو امتدادي في عمق الزمن السحيق بقوة وامتداد واحتواء، ثم استقرار لذيذ مذهل، وكأني أصبحت ولست من هذا الزمن أو هذا الجيل، فأشعر بالعربة تضغط على صدري والدموع تسيل من عيني، وأقفل راجعاً إلى المنزل بخطى سريعة جداً لعلّي أتخلص من هذا الانخطاف الذي استسلمت إليه والذي خفّت أن يبتلعني. وكأني لا زلت أرضع بشدة من روح أسلافي.

- وذات يوم لم أخرج، وكان باب الفرنادة مغلقاً بالشيش فقط، فكنت أسمع وأنا نائم على سريري ما يدور بين صاحبة المنزل (مسلمة) تسكن فوق شقتي وبين الجيران أمامي، وبدأوا يتكلمون عن سلوكي وكيف أتي لم أخرج شعور أحد من الجيران قط (كانوا مسلمين أتراكاً، وابنهم معيد في كلية الزراعة)، فردّت صاحبة المنزل على استفسارهم منها عن سبب اختلافي عن باقي الطلبة (القاطنين في نفس المنزل) فقالت لهم: **لأنه مسيحي!!**.



- ”سمعتُ هذه الشهادة، وإذا قوة إيمان ونار المسيح تدخل في قلبي. وقلت: أُجِّدك يا رب طول حياتي. فهذه الكلمة "لأنه مسيحي" من امرأة غير مسيحية شدَّدتني وصلَّبت عودي. فإن كنا لا نشهد للمسيح في أيام شبابنا وتلمذتنا فمتى نشهد له؟ كما يقول الكتاب: «فادْكُرْ خالقك في أيام شبابك» (جا ١٢: ١)، «أكتب إليكم أيها الأحداث لأنكم قد غلبْتُم الشرير» (١ يور ٢: ١٣).

- أما القصة الثانية التي تُظهر كم كان يوسف اسكندر في شبابه يحفظ حواسه طاهرة إلى أبعد حدٍّ، ما رواه بنفسه لبعض الضيوف في حديثه عن العين البسيطة حيث قال: ”عندما كنتُ شاباً كانت عيني أقدر أقول إنها طبيعية، وفي يوم ما وجدتُ أنها ليست بسيطة، فارتعبتُ وصرختُ إلى الله. فقد كنتُ ماشياً على شاطئ البحر في الإسكندرية، وأخطأت عيني على البلاج فارتعبتُ جداً وشعرتُ أن شيئاً ما خطأ دخل في كياني كله، فاضطربتُ وانزويْتُ، ورجعتُ إلى غرفتي وقلتُ له: يا رب، إنني أريد أن أعيش لك، فإن كنتُ أعيش عمري بعين تنظر يمين وتنظر شمال فأنا هالك وليس من فائدة، فبلاش جهاد بقي إن كنت سأضيع وأهلك، وبلاش أعيش معاك ولا أُصلِّي ولا أذهب إلى الكنيسة ولا أتناول! فإن كانت عيني لها حرية تنظر يمين وشمال وليست بسيطة، فأرجوك وأتوسل إليك أن تعطيني العين البسيطة، ولم أكن قد عرفتُ معنى العين البسيطة. ثم أخذتُ خبرة وازدادت الخبرة وبدأت أفهم ما هي العين البسيطة. فالعين البسيطة يا أحبائي، هي العين التي لا تشتهي، العين التي لا تُدخل شيئاً غريباً (أو شريعاً) إلى الداخل“.

## إيمانه وثقته في قوة الله التي تقهر أعمال الشيطان:

- حدث وهو طالبٌ في السنة الأولى بكلية الصيدلة، أن قال له بواب عمارة إنه توجد شقة رخيصة ولكنها نظيفة جداً ومدهونة بالزيت، ويمكن لصاحبة الشقة أن تتنازل لك في الإيجار إن كنت طالباً. فلما رأى الأخ يوسف الشقة تعجّب لأنها كانت كبيرة ومدهونة بالزيت وفي عمارة جميلة، ولا يتجاوز إيجارها الجنيه والنصف! فاتفق سريعاً على السكن فيها وأحضر الأثاث الذي لا يغطي سوى حجرة واحدة لطالب متغرب. ولما أعدّ الحجرة وجاء بلمبة جاز نمرة ١٠، ونظف اللبة لكي يذاكر عليها ليلاً، فإذ بالهواء يفتح باب الحجرة فجأةً وينفخ في اللبة فتسقط على الأرض وتنكسر. فاشترى غيرها وأعدّها، ثم رأى كأن هواءً شديداً يهب مرة أخرى وينفخ في اللبة ويسقطها على الأرض فتتكسر. ف شعر الأخ يوسف، بحاسته التي اكتسبها من كثرة الصلوات وحبّه للمزامير والإنجيل، أن هذا روح شرير يقاومه. فقال بصوت عال وكأنه يكلم الروح الشرير: ”أنا وراك والزمان طويل“! ثم ذهب وأحضر لمبة جاز جديدة ووضعها في مكانها وأمسك بسفر المزامير وابتدأ يصلي من أوله بكامله بانتباه وحرارة وإيمان، وكان يشعر أن باب الحجرة يهتز بشدة لكي ينفث، ولكن لم يستطع الروح الشرير أن يفتحه، حتى شعر بالهدوء والسلام في الشقة كلها، وصلى المزامير كلها، ثم نام في هدوء وسلام.

- وفي الصباح وهو ذاهبٌ إلى الكلية قابله البواب مستفسراً: ”كيف الحال يا أستاذ“؟ فأجاب: ”أحسن حال“، وضحك. فسأله البواب: ”ألم تشعر بشيء“؟ فقال له: ”جميع الأرواح الشريرة هربت ولا يوجد فيها شيء

الآن“. وعلم من البواب أن شخصاً ما كان قد قُتل في هذه الشقة، وأن كثيرين سكنوا فيها ولم يمكنهم أن يمكثوا فيها أكثر من ليلة واحدة!

### بداية علاقتي بالإنجيل عندما كنت شاباً:

- [كانت بداية علاقتي بالإنجيل عندما كنتُ علمانياً، وكانت دموعي لا تفارقني، فالعالم كان يأكل وقتي بالساعات والأسابيع والشهور والسنين. وشعرتُ أنني لن أخرج من العالم بشيء. المال لا يغترني، بل إنني صرتُ أكرهه، لأن المال معناه عبودية، فعندما تكثر الفلوس، تمسكني من رقبتني كالعبيد، لكي أزيد من شغلي وسهري وتعبني ووقوفي. وشعرتُ أن المال يستعبدني ويسرق عمري برضائي وأمام عيني. فبدأتُ تتربى عندي حساسية ضد الفلوس، ثم حساسية ضد كثرة المشاغل. وقلتُ في نفسي: إذا كنا، ونحن لا زلنا على البرّ، غير قادرين أن نجلس مع ربنا ونتمتع بالكتاب المقدس، ... وأجلس أتفرج على نفسي وعلى عمري الذي يضيع من بين يدي]

- [وصلتُ كثيراً حتى انفتح الإنجيل أمامي وصرتُ أستوعب كثيراً، فوجدتُ نور الإنجيل ومجده شيئاً كثيراً جداً، فارتعبتُ. ثم بدأتُ أحزن في نفسي وأكتئب بعد أن شعرتُ بقوة الإنجيل وسلطانه في نفسي وعلى حياتي، وبعد أن أحسستُ بقوة التغيير تسري في جسمي وقلبي بصورة جارفة كل يوم. فبدأتُ أبكي كثيراً، لماذا؟ لأنني قلتُ: يا رب، الإنجيل مليء بالذخائر. آيات قليلة أخذتُ منها الكثير جداً، فمتى أنتهي من الكتاب بعهديه؟! إن كان بهذا المستوى فأنا محتاج إلى ١٠٠ أو ٢٠٠ سنة بذهن صافي جديد، وأنت عارف، يا رب، أن الذهن لن يمكث معي كثيراً، فإن عبدك يطلب منك يا سيدي أحد أمرين: إما أن تُطيل في عمري، أو تعطيني شباب ذهن

لكي أستوعب الإنجيل كله، لأنه حرام أن يكون أمامي ١٠-١٢ سنة بعد سن الثلاثين ثم يبدأ الذهن ينطفئ! فتعطيني استيعاباً كثيراً جداً حتى تعوضني، يعني أستوعب في شهر ما كنت أستوعبه في سنة أو سنتين، وبغير ذلك سأكون حزينا جداً، أريد أن أفرح بالإنجيل، وأخاف أن ينتهي عمري ولا أكمل استيعاب هذا الإنجيل بجماله“[!].

### بين خبرات الصلاة في طفولته، وبين قوة حياة الصلاة وهو في الرهينة:

يربط أبونا متى بين خبرات الصلاة في طفولته وبين قوة حياة الصلاة وهو في الرهينة:

[تركّ العالم إلى البرية وقلْتُ: ها قد دخلنا في حضن المسيح فهل نبتدئ أيضاً في الدخول في القامات الروحية العالية. فبدأت أسهر وأصلي وأسبح وأقرأ الإنجيل وكتب الآباء. وابتدأت أنمو قليلاً قليلاً حتى بدأت أشعر مرة أخرى بالإحساس الطفولي عندما كان عمري نحو أربع سنوات. فشعرت بالرهبة الإلهية، وانتابني الشعور بواقعية بالله سامع الصلاة، وأنه لا يوجد أي فاصل بيني وبين الله، وأنه توجد قضية مرفوعة أمام الله في السماء وأنه يسمعها.]

- لأنني عندما كنتُ طفلاً كنتُ أفهم أن الموضوع انتهى كنتيجة للصلاة، مع أنهم ما كانوا يقولون لي ذلك، بل كنتُ أفهم ذلك من كلامهم: أن الرب تمجد وأن الضيقة انتهت، وأن بركة ربنا حلّت.

- فكنتُ أفرح، ولكنني لم أشعر وقتها أن هذا كان نتيجة صلاتي، بل إن الرب استحباب الصلاة“.

## تجرُّده وحبّه للمساكين:

ومن خبرات حياته وهو شاب نفهم كيف انطبعت معالم حياته الرهبانية القائمة على محبة الله، ومحبة الضعفاء والمساكين في المجالات التي عاش فيها في الرهينة:

- ”... ركبْتُ الأوتوبيس ذات يوم وشعرت بيد تنزل على جيبي الذي كان به القلم الأبنوس، وأنا راجل حساس جداً. فعملت نفسي إني "موش واحد بالي"، وتتبعْتُ خيال الذي أخذ القلم فوجدته امرأة! ولم أكن آنذاك قد قرأت قصة القديس السابق ذكرها. وحينما قرأتها وتذكرت نفس الموقف فرحتُ أنني سائرٌ في طريق الآباء“.

- والقصة الثانية ذكرها أحد زملائه في الدراسة والعمل الدكتور "عدي رلفة"، إذ يقول: ”سمعتُ عن مريض أخذ دواءه وانتهاز فرصة انشغال الدكتور يوسف (الأب متى) وخرج مسرعاً دون أن يدفع الثمن. فلما رأى مريض آخر هذا العمل نبَّهه إليه فأجابه: "لقد تشاغلْتُ عنه عمداً لكي أعطيه فرصة أن يأخذ الدواء دون دفع الثمن، فالمريض لا يسرق دواءً إلا إذا ألحَّت عليه الحاجة، وقد قررتُ في نفسي أن أمنحه إياه مجاناً“.

- وإن كان قد عرف منذ شبابه قمة التجرُّد بقبول سلب أمواله بفرح، إلا أنه عرف أيضاً قمة البذل والعطاء للمساكين.

- وإليك هذه القصة التي رواها بنفسه: ”كان عندي، وأنا طالب، نصف ريال (أي عشرة قروش)، وكان ذلك هو المتبقي من مصروفي الشهري في أواخر الشهر، وكنت منتظراً حوالة النقود في أوائل الشهر التالي بعد أن يقبض الوالد

ماهيته. ووجدت على كوبري "محمد علي" شخصاً يبدو أنه موظف غلبان جداً، وكان حذاؤه ممزقاً، فعطفت عليه وناديت له أعطيه شيئاً، وحينئذ تذكرت أنه ليس معي سوى هذا النصف ريال، ورغم حاجتي الماسة إليه لم أراجع بل أعطيته إياه.

- "ثم ذهبت إلى المنزل ولم أجد طعاماً، فمضت جائعاً. وقد عذبني الشيطان قائلاً: هذا قهور وعدم تعقل، إذ كيف تعطيه النصف ريال الذي يمكنك أن تأكل به حتى أوائل الشهر؟ فكان ردّي عليه: لتكن مشيئة الرب. ثم ذهبت إلى الكلية في الصباح حيث قال لي أحد زملاء، على غير العادة، إن اسمي مذكور في كشف خطابات الطلبة. فقد كنت أقرأ هذا الكشف في أوائل الشهر فقط. وحينئذ وجدت خطاباً به حوالة النقود قبل الميعاد المعتاد بخمسة أيام، علماً بأنني لم أرغب أن أستلف من أحد، وكنت قد نويت أن أصوم انقطاعاً حتى تأتي الحوالة!"

- كما أن هذا الزميل نفسه روى قصة أخرى عن أبينا الروحي قبل قائلاً: "شاءت الظروف أن نجتمع بعد التخرج في الإسكندرية. وإذ به يوماً يستنجد بي تليفونياً لكي أقابله في محطة الرمل لأمر هام. وكم كانت دهشتي عندما طلب مني سلفة مالية عاجلة بينما كنا في أوائل الشهر. ولما استوضحته الأمر، وأنا أعلم الناس بمقدار استقامته واتزانة، علمت أنه أعطى محتاج كل ما في جيبه (كل مرتبه) ولم يحتفظ لنفسه بثمن تذكرة الترام، وأبت عليه كرامته أن يطلب من صاحب الصيدلية التي كان يعمل بها أجراً مقدماً!"

- حضر إليه مرة في منتصف الليل شاب من قرية مجاورة لدمهور، وقرع باب منزله مستنجداً لضرورة شراء دواء لوالده المريض في حالة خطيرة ولم يجد

مُنْقَذاً إلا هو. فطمأنه وخرج معه وفتح الأجرخانة وأعطاه الدواء، وكان غالي الثمن. ولما وجد الشاب أن نقوده لا تكفي الثمن ارتبك. قال له الدكتور يوسف: لا داعي الآن لدفع الثمن، فبعد أن تطمئن على أبيك تعال في أي وقت لدفع الثمن! فسأله الشاب: هل أنت تعرفني حتى تطمئن على فلوسك؟ فقال له: هل أنت حضرت لأخذ الدواء دون أن يكون أبوك مريضاً؟ ولما شُفي المريض جاء رجال القرية جميعاً لتقديم الشكر للصيادي الكريم الرحيم الذي قدم الدواء في نصف الليل دون أن يهتم بثمنه! وهكذا كَرَّمَ الرحمة، فمَجَّد الله بسبب تكريم جميع رجال القرية البسطاء!

- ومن جهة أخرى، كان قانعاً بأقل القليل من إيراد عمله غير طامع ولا طامح في غنى هذا العالم الباطل، إذ كان يتطلع إلى غنى المسيح الذي لا يُسْتَقْصَى، الأمر الذي أثار عليه غيظ زملائه في العمل، إذ كان بقناعته وزهده يجتذب عملاء أكثر. إلا أن هؤلاء الزملاء كانوا يُجْلُونه ويحترمون! وقد تكلم هو نفسه عن ذلك لأولاده الرهبان بقوله: ”كنتُ ناجحاً في عملي الصيدلاني بنعمة الله، وكان الناس يحبوني وأنا أحب الناس. ولكنني وجدتُ حيناً في قلبي إلى المسيح. ولم أكن حينئذ بعيداً عن الكنيسة، فمنذ سنة ١٩٣٩ كنتُ مرتبطاً بالكنيسة ارتباطاً شديداً كخادم وشريك للخدام في حياتهم، شركة بالروح على مستوى الخدمة والتوجيه والكلمة والرأي. وفي الحقيقة إنني في عملي كنتُ أخدم، ولكن بالإضافة إلى الخدمة والعطاء الذي كان بلا عقل (أي يفوق العقل)، والتضحية من أجل الكنيسة التي في البلد (دمنهور)؛ فقد كان في قلبي حنين شديد للمسيح لم أستطع أن أطفئه أبداً، وقد انعكس على عملي بطريقة جعلت الناس تزداد علاقتهم بي لدرجة

الجنون“!

- ”ولكن لماذا؟ واحد مثلي كان يحب المسيح ويريد أن يترك كل شيء ويخرج وراءه، فصار عملي بإخلاص شديد وأمانة شديدة وتضحيات كبيرة، بمعنى أن ربحي من عملي كنت آخذ منه ما أعيش به فقط. لذلك لم أكن محبوباً من زملائي في المهنة أبداً، لكنهم كانوا يحترمونني، لماذا؟ لأنني كنت أسلك باستقامة، فما كانوا يبيعونه بعشرة كنت أبيعته أنا باثنين. وطبعاً هو المسيح الذي أعطاني هذه القناعة، لأن مهنتنا هذه ليس لها حدود وخصوصاً في أيامي حيث لم يكن هناك دواء جاهز إلا ربحاً أقل من عشر الأدوية، فكان الربح يتحدد كما يريد الصيدلي، فأنا كنت أقتنع بالقليل، لماذا؟ لأنني أريد المسيح وأحب المسيح، فارتبطت الناس بي أكثر، ولكنني كنت أريد أن أنفك من الناس، إلا أنهم ازدادوا من حولي، ذلك لأنني كنت أريد المسيح وحده فكنت أسلك باستقامة وبفقر، حتى إنهم كانوا يسمونني "الفقير الهندي"! ولما أردت أن أنفك من الناس وجدت أنهم يتجمعون من حولي ورُبطت بمائة طوق!“

### **أمانته في العمل مستمدة من الإنجيل وحفظ الوصايا:**

- كانت خلفية أمانته في العمل مستمدة من الإنجيل وحفظ وصايا الرب يسوع، فهو يقول في ذلك: ”كانت بداية علاقتي بالإنجيل عندما كنت علمانياً، وكانت دموعي لا تفارقني، فالعالم كان يأكل وقتي بالساعات والأسابيع والشهور والسنين. وشعرت أنني لن أخرج من العالم بشيء. المال لا يغرنني، بل إنني صرت أكرهه، لأن المال معناه عبودية، فعندما تكثر الفلوس، تمسكني من رقبتك كالعبيد، لكي أزيد من شغلي وسهرتي وتعبي ووقوفتي.



وشعرتُ أن المال يستعبدني ويسرق عمري برضائي وأمام عينيّ. فبدأتُ تتربى عندي حساسية ضد الفلوس، ثم حساسية ضد كثرة المشاغل. وقلتُ في نفسي: إذا كنا، ونحن لا زلنا على البرّ، غير قادرين أن نجلس مع ربنا ونتمتع بالكتاب المقدس، وناقص عليّ أن آتي بزوجة ثم طفل وراء طفل، ويأكلوا مني بقية الليل لا بقية النهار فقط، فما العمل؟ لا يمكن يا رب، أن أسلم عمري الذي استلمته وديعة منك وهو وديعة لك، لامرأة (وبالضرورة للعالم لأن المتزوج يهتم في ما للعالم كيف يُرضي امرأته» ١كو٧: ٣٣)، وأجلس أتفرج على نفسي وعلى عمري الذي يضيع من بين يديّ“.

- ”فأقول لكم، منذ أن كنتُ في العالم مثلكم ابتدأ إحساسي بضرورة وأهمية الإنجيل بأقصى درجة. وإذا كنتُ أنا اليوم راهباً، فهذا بسبب شغفي بالإنجيل. لأنني لما فكرتُ في الطريق الذي أسلكه لكي يبقى عمري للإنجيل والإنجيل يبقى لي ولعمري، قلتُ: يا رب، إلى أين أذهب؟ ففكرتُ أن أشتغل في المراكب حيث يوجد لي في البحار وقت كثير. ولكني قلتُ: كلاً، فإنهم سوف يُذلُّوني ويُتعبونني، كما أنني أسمع أنه يوجد في البحار دوار البحر الذي يسبب القيء ووجع القلب ولا توجد هناك راحة. ثم قلتُ: أترك الدنيا وأشتغل جمّالاً لكي أمشي في الصحاري وراء القوافل، ولكن هذا شقاء أيضاً. هذا هو ما كان يدور في عقلي. ثم قلتُ: ولماذا هذا التعب؟ ما أنا آخذها من قصيرها والرهينة حلوة. فظلاً معارفي يُخيفونني جداً ويقولون لي: "رهينة؟ إياك!" ولكنني قلتُ: يا رب، وتشجَّعتُ!“

- ”طبعاً لم يكن قد خرج أحد قبلي للأديرة حينذاك من الذين يقولون عليهم إنهم متعلمون. قالوا لي: إنهم سيُتعبونك هناك ويُذلُّونك، ولن تجد

مكاناً ولا وسيلة للراحة. فقلت: لا يا رب، إن آبائي خرجوا وعاشوا ونجحوا وانطلقوا إلى السماء، فسَهِّل الطريق لعبدك“!

### أمانته في الخدمة لتوصيل كلمة الحياة للآخرين:

- انطبعت أمانته أيضاً بالأكثر على خدمته للكنيسة وبذل ذاته لتوصيل كلمة الحياة للآخرين، وهو يقول في ذلك: ”قال الرب: «مَنْ أراد أن يخلِّص نفسه يُهلكها، ومن يُهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل فهو يخلِّصها» (مر ٨: ٣٥). يوجد إنسان يُهلك نفسه فعلاً من أجل الإنجيل، فهو مستعد أن يمشي ليلاً ونهاراً وسط اللصوص والكلاب المتوحشة من قرية إلى قرية. أنا رأيت وجُزئت مثل هذه الأمور. فكنا نمشي بالليل من قرية إلى قرية وأخرى أيضاً في الظلام. ففي بداية خدمتي في مدارس الأحد، وهي كانت شاقة جداً، كانوا يقولون لي مثلاً: أنت تركب العربة الفلانية وتذهب إلى قرية "ساقية مكي" وتعمل هناك مدارس أحد. فأسألهم: في بيت مين؟ يقولون لي: لا نعرف، قُل لهم هناك: أين بيت عم حنا النجار (وهو اسم وهمي)، فيقولون لك: لا، إنه ليس حنا، إنه جرجس. فتقول لهم: نعم، أين بيت جرجس؟ فيأخذونك إليه وتقرع بابه وتقول: يا معلم جرجس، كيف حالك؟ أنا جاي من طرف المسيح لنعمل في بيتك خدمة للأولاد الصغار، هل ممكن نجتمعهم؟ يقول لك: قوي. وفعلت ذلك، وقلت له: هل تسمح أن أحد أولادك ينادي أولاد الجيران؟ فوافق، وفي أول يوم جاء ١٠ أو ١٢ ولد وأعطيناهم الدرس، وفرحوا ورتلوا وأعطيناهم صوراً، وقلت لهم: في المرة القادمة تأتوا ومعكم أولاد آخرين، وبعد عدة مرات التأم كل أولاد القرية. وهكذا فعلنا في كل قرية، وكانت الدنيا تُظلم علينا وتخرج علينا الكلاب،

والواحد كان يرتبك ويضطرب. ولكن كانت تحدث معجزات وراء معجزات حتى إنني شبعْتُ من الإحساس بعمل الله الفائق وسط مخاطر العالم.“

### **حبه للخطاة والمساكين وعدم احتقاره لأحد:**

- كان الدكتور يوسف منذ شبابه يحمل أحشاء رحمة وحنان الرب يسوع للخطاة والمحتقرين. وكان يحنو عليهم بإشفاق أبوي، ولا يحتقر أحداً منهم، بل كان أحياناً ينتفع منهم. وقد روى لنا قصصاً كثيرة عن ذلك. وإليك هذه القصة التي رواها بنفسه: ”يا أحبائي، في شبابي دخلتُ الكنيسة مرةً، ولم يكن لي فيها شأن ولا أهمية. فلا تنظروا إلى الذي أمامكم كأن له أهمية. إنني يوم خروجي من العالم كنتُ أصغر من أصغر واحد فيكم، وأضعف من أضعفكم. فكنتُ أدخل الكنيسة وأختبئ في آخر كرسي لأني ما كنتُ أعرف ما يقوله القسيس ولا الألحان ولا اللغة القبطية، غلبان ومسكين لا أعرف شيئاً قط“.

- ”حتى يوم أن خرجت للرهينة كنتُ لا أعرف شيئاً قط، فقط كان قلبي يسمع صوت الله ونداءه، ويريد أن يشيع منه، فجريت وراءه. ففي فجر شبابي، سنة ١٩٣٩، كنتُ في كنيسة مار مرقس بالجيزة حيث دخلتُ لأسمع كلمة، وكان الأخ وهيب زكي (أبونا صليب سوريال) يعظ وهو لا يزال طالباً. ثم وعظ بعده واحد آخر اسمه ”محفوظ فهمي أندراوس“ - وهو في الإسكندرية (وقد توفي منذ عدة سنوات). وفجأةً وجدتُ واحداً يسير قاطعاً الصفوف كلها نحو المنبر وقال للواعظ: تسمح يا أخ، أنا أريد أن أقول كلمة. فكان الموقف حرجاً جدياً، إذ إنه كان حافي القدمين وثيابه رثة وممزقة. فضحك الأخ محفوظ، فقال له الرجل: لا تضحك يا أخ، نحن في كنيسة الله!

فخاف، ثم قالوا له: تفضل تكلم. وإذ كنا منتظرين لما سيقوله ألقى كلمة موجَّهة ومبكَّتهً إلى أقصى حد! وقد شبعْتُ منها كثيراً، ولا زال يُنَى حتى اليوم آثار من هذا الشبع! ولما سألتُ عن هذا الرجل، قالوا لي إنه بائع القصب الذي يقف على أول حارة الكنيسة! وكان كل ما قاله: "يا إخوة، الموضوع مش محتاج لكلام كثير. دا ربنا حلو خالص. ربنا حلو خالص... وهذا يكفي!"

”يا أحبائي، إن كلمة الله لا تبحث عن المكان الذي تدخل فيه لكي تسكن، فالمسيح عندما يدخل الكنيسة اليوم وعندما يفتقد - وهو يفتقد شعبه إلى الأبد في كل مكان على وجه الأرض - لا ينظر إلّا إلى الإنسان ذي البصيرة المنيرة فيُحدِّثه من خلال الاتضاع، أو إلى ذوي القلوب الوديدة المتضعة فيكلمهم كوديع لوديع وكمتواضع لمتواضع! ولا يهم المسيح أبداً مَنْ أنت، وماذا تكون، أنت كبير أم صغير، لك اسم أم لا، نكرة أم عَلم في الكنيسة. كل هذا لا يهمه، فالجالس على أكبر كرسي في الكنيسة يفتقده الله كما يفتقد الحافي القدمين والمكسوف أن يدخل الكنيسة ويقف على رصيف الشارع، سيان عنده هذا وذاك. فالرب يفتش على إنسان قلبه متواضع ليسكن فيه أو نفس مستنيرة بالروح يستطيع أن يضيء فيها بلا مانع!“

### صفاته الأخرى:

لنترك الحديث هنا لزميله الحميم الدكتور عدلي رفلة. فقد كتب عنه رسالةً احتوت على ذكرياته معه قبل الرهبنة وبعدها، ولأهمية هذه الرسالة نقلها كما هي:

”دمنهور في ١٢ يناير سنة ١٩٥٧

الأخ الحبيب رئيس تحرير مجلة مدارس الأحد

تحية طيبة، وبعد. فقد طالعتُ في العدد الأخير ما نشرتموه عن أبي الحبيب متى المسكين، فعادت بي الذاكرة إلى سنوات طويلة خلّت من عمري، وتسارعت صور متلاحقة أمامي من حياة زميل صباي الدكتور يوسف اسكندر، ومرّت بخاطري كلها سعيدة وضّاء مشرقة لم يكن فيها ما أملّ من تكراره أبداً.

- عرفته زميلاً في دراستي الجامعية وديعاً هادئاً محباً للخير، يذكر خالقه في أيام شبابه الأولى. كان زميلاً عادياً ليس من هواة الزعامة الجوفاء ولا ممن يقتلهم حب الظهور، حتى إذا ما بدأت الأهواء السياسية والنزوات الطائشة تلعب بمستقبل الصيادلة، اندفع هذا الزميل الوادع إلى مقدمة الصفوف. وقضينا سوياً فترة غير قصيرة نضل الليل بالنهار في السعي لدى مختلف الجهات وطبع المنشورات. وتلاحقت أسباب الكفاح، فلم يهدأ حتى زالت الغمّة.

- ثم شاءت الظروف... (قصة إعطائه كل مرتبه لمحتاج في الإسكندرية التي ذكرناها سابقاً). ثم دارت الأيام دورة قصيرة وافترقنا، ثم التأم رابطنا مرة ثانية. وأعود في صدفة غريبة لأشتري صيدليته لأنه اعتزم أن يترك العالم كله ورأيث منه عجباً: رأيث صيدلية أنيقة ناجحة، ظل هو نفسه يحلم بها سنوات طويلة، ولكنها إذا ما شغلته عن العبادة الحقة فهو يُلقيها وراء ظهره ولا ينظر إليها البتّة. رأيته صبوراً طويل الأناة، بادي العطف يكدح في صمت ووداعة حتى إذا ما لمسّ ضعفه نفس غير كريمة وُخِّل لها أن تنال منه، انفلت من

عقاله أسداً جسوراً سرعان ما يعود مستكيناً مسالماً إذا ما جنح خصمه نحو السلام.

- رأيتُه يحترق في كفاح شاق مرير والمال في يده وفير وهو صائم يذل نفسه ويستعبدها. رأيتُه يكافح لا لكي يهدم أعداءه ومنافسيه ولكن لكي ينقلبوا إلى أصدقاء له. رأيت أصدقاءه ومريديه يلحون عليه لكي ينثني عن عزمه ويبقى بينهم، وهو يواجههم تارةً ويهرب من أمام وجوههم تارةً أخرى في عزم وإصرار. وسمعتُ عن زميل يعرض عليه في غيابي ثمناً للصيدلية يزيد عما اتفقنا عليه فيضحك يوسف قائلاً: يا عزيزي، لقد ارتبطتُ بكلمة! وسمعتُ عن مريض. (القصة التي ذكرناها عن المريض الذي أخذ الدواء ولم يدفع ثمنه).

- وفي آخر أيامه في دمنهور، رأيتُه ينطلق نحو المخطئة غير آسف، مرفوع الرأس، شامخ الأنف، تتهلل أساريره، وهو يسرح ببصره إلى الأفق البعيد نحو هدف يبدو جميلاً وضّاءً. وفي لحظة فهمتُ أنه قد ورّع كل الثمن وأصبح خاوي الوفاض، فتزقزق الدمع من عيني وأنا أدسُّ في يده ورقة مالية صغيرة تكفي لرحلته (قال هو إن المبلغ كان كافياً لتوصيله إلى القاهرة فقط). وتأكدتُ حينئذ أنه هو الغني وأنا الفقير.

- هذه يا أخي صور تمتعتُ بتذكارها شاهداً، ثم أعدتُ قراءة رسائله لي من الدير لأزيد نفسي استمتاعاً. ويعزُّ عليّ ويصعب مهما ضاق المجال أن أكون أنانياً فأستمتع بها وحدي، فتعال نمرّ في هذه الرياض الفيحاء مروراً سريعاً:

- تأمله معي يشرح لي أسس النجاح فيقول: إن نجاح رسالتك يحتم أن تضع نصب عينيك أسساً ثلاثة: الله والنفس والعمل. واحفظ نفسك من

الشهوات والمعاشرات الرديئة، وكن أميناً على نفسك التي هي وديعة عندك إلى تمام زمان حياتك. أما لسانك فاضبطه لأن اللسان الذي يلعن لا يبارك. أما عن العمل فجيئاً أن تهتم به وأن تسهر جاهداً لتكوين مستقبل يلزم لراحتك، ولكن احذر من أن يصل الجهاد إلى الدرجة التي يصير فيها هذا الاهتمام لراحتك تعباً وشقاءً.

- ثم تأمله كيف يدربني على أن أعمل حافظاً عقلي وقلبي في الله مردداً صلاة الآباء القديسين القصيرة: [يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ]، ويوصيني أن أرددها في كل وقت حتى تسكن في قلبي. ثم أصغ إليه وهو يقول لي عندما اختار لإقامته ديراً فقيراً: 'ورأيتُ أنا بمشيئة الرب أن أعيش في وسط هؤلاء الفقراء، لأن أعظم مسرة لي في الحياة هي أن أجوع مع الجائع وأتألم مع المتألم'!

- ثم تأمل عمق محبته عندما أشكو إليه بعض متاعبي فيعزييني قائلاً: 'بودّي، يا أخي الحبيب الذي أحبه من عمق روحي، وأتوسل بدموع، لو كان هذا ممكناً، أن أتنازل عن نصف ما أستمتع به من سلام أو كله ليكون لك! واعلم أيها الأخ الحبيب، أنه «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤: ٢٢)، فإذا سهلت حياتك واستطاب عيشك فاحذر واعلم أنك قد ابتعدت عن الطريق'!

- وظلت رسائله هكذا تضيء حياتي. وعلمتُ بذهابه مع زملائه وأبنائه إلى هذا الدير القصي الفقير. وفي جزع ولهفة أرسلتُ له خطاباً أعرض عليه العون والمساعدة، ولما استبطلته أرسلتُ تلغرافاً، وبعد إلحاح شديد قبل معونتي في حدود. فإلى أي علو سمت هذه الروح حتى لمست النور السمائي! وإلى

أي عمق تغلغت هذه المحبة حتى تفتت الصخر! وكيف أن هذا الذي (عندما عاد من عمله كوكيل للبطيركية في الإسكندرية) ترك في خزانة البطيركية ٣٨ ألف جنيه، وكيف كان يقطع الأحجار لكي يبني لصَحْبِه (الرهبان) قلالي لكي يعيشوا فيها حياة التجرد والاتضاع!

وفي سلام الرب أرجو أن تكون - إمضاء: دكتور عدلي رفلة -.

(انتهت الرسالة).

### **"الدكتور يوسف الصيدلي"، شعوره بأن الله هو صاحب الصيدلية:**

- قال الأب كيرلس المقاري: "كان يذكر لنا دائماً أن شعوره نحو الصيدلية أنها كانت ملكاً للرب يسوع، وما هو إلا صيدلي يعمل عند يسوع وتوجيهه ولا يملك هو فيها شيئاً. وكان يشعر أن الذي يقصد الصيدلية كان يقصد في الواقع يسوع، وهل يُخزي يسوع الكريم إنساناً يقصده؟ إنه يعطي بسخاء. فكان أصحاب الصيدليات ورجال الأعمال يعتبرونه مختل العقل لأنه "بيعَرق" ماله لكل الناس. وكان هو بالفعل لا يحسب مقدار دخله اليومي، ولا كان يقلق عندما يعطي المحتاجين الذين يقصدونه. ولكن العجب، كما قال هو، أنه كان يجد أن الأرباح أكثر مما كان يتصور أو يتوقع!"

- كان بجوار الأجزخانة محل حلاقة الأسطى محمود، وكان رقيق الحال ولا يتسع محله إلا لكرسي حلاقة واحد. وأراد أن يوسّع محله، ولما ترجى صاحب العمارة قال له إنه يوافق أن يعطيه الدكتور يوسف جزءاً من الصيدلية. ولما



طلب الأسطى محمود ذلك من الدكتور يوسف, رَحَّب جداً أن يساعد هذا الرجل الفقير وسمح له بمترين من مبنى الصيدلية دون أي مقابل لأنه كان يحبه. والعجيب أن هذا الحلاق ظل يبحث عن الأب متى بعد رهبنته حتى وصل إلى دير أنبا صموئيل في عمق الصحراء لكي يسأل عنه ويشكره ويقدم له أي خدمة يريد!ها!

- كانت العقاقير السائلة التي تدخل في تركيب الأدوية شحيحة جداً، فيضطر الصيادلة أن يشتروها من السوق السوداء بأسعار باهظة. وكان الفلاحون يسألون في الصيدليات عن ثمن الأدوية فيجدون فرقاً كبيراً بين ثمنها الرخيص عند الدكتور يوسف والثلثن الأغلى عند الصيدليات الأخرى. وعندما يتعجب المريض من ذلك ويسأل الدكتور يوسف إن كان سيُرَكَّب الدواء من جميع المواد المطلوبة، فيرد بالإيجاب، فيسأله المريض: ولماذا هذا الفرق؟ فيقول له: لأنهم يضطرون إلى شراء بعض المواد من السوق السوداء بأسعار مرتفعة، وأنا أيضاً أشتريها من السوق السوداء ولكنني لا أحمل المريض بالفرق، فأنا أفعل ذلك لأكتمل تركيب الدواء، ولكن ما هو ذنب المريض؟ فكان المرضى يتعجبون جداً ويزدادون حباً له! والعجيب أنه بالرغم من ذلك كانت أرباحه تزداد لأن الله كان يباركها لحساب مجد اسمه. فقد كان يُزِيد من عطائه للناس لشعوره أن الأجزخانة ملك للمسيح وما هو إلا وكيل على ممتلكات المسيح السخي في العطاء!

### **إنقاذه والذين معه من موت محقق، نتيجة شعور باطني بخطر داهم في الطريق:**

- كان الدكتور يوسف يعمل (فور تخرجه) صيدلياً في محجر الطور قبل أن

يملك صيدلية في دمنهور، وكان زملاؤه يدعونه أثناء مرورهم بالعربة في جبال سيناء لزيارة دير سانت كاترين الذي كان قريباً منهم. ولكنه كان قد عاهد نفسه ألا يزور أي دير حتى وقت رهبته فلا يخرج من الدير قط.

- وألحوا عليه مرةً أن يذهب معهم، فتنازل عن رأيه وذهب معهم. وبينما كانوا يسرون على مدقات (طرق غير معبّدة بالأسفلت) في الجبل، وكان الدكتور يوسف جالساً بجوار السائق، وكان الظلام قد حلّ، إذ به يشعر في داخله باضطراب شديد، وظل قلبه يدق بضربات متلاحقة، ثم ازدادت الضربات جداً، مع اختناق، أحس معه كأن روحه ستخرج منه، فلم يستطع أن يصبر وصرخ في وجه السائق لكي يتوقف فوراً حتى يستريح قليلاً لأنه كان يشعر بتعب شديد. فتوقفت السيارة في الحال ونزل هو لكي يستنشق بعض الهواء البارد ليسترد أنفاسه، وكانت كشافات السيارة مضيئة، وظل هو يتمشى حول السيارة حتى رأى أمامه على بُعد أمتار قليلة هوةً سحيقةً كانت السيارة مزعجةً أن تسقط فيها وتنحدر من علو شاهق. فتعجب جداً من تدخّل الله في اللحظة المناسبة. وأخبر رفقاءه بالهوة التي لما رأوها اندهشوا للغاية، إذ كيف أن الله أنقذهم من موت محقق بسبب الإحساس الروحي لدى الدكتور يوسف!

**هذا الشعور الباطني (الغامض) كان يقوده في كثير من المواقف في حياته:**

- في حياتنا الطويلة التي عشناها مع أبونا متى المسكين لاحظنا هذا الشعور الباطني الذي كان بالنسبة لنا "غامضاً" لكننا فيما بعد تأكدنا أنه تعبير عن استنارة روحية باطنية لديه كانت تقوده في كثير من المواقف الحرجة

التي صادفها في حياته واستلزمت منه سلوكاً خاصاً حاسماً، ربما كان يبدو لغيره من الناس أنه غريب أو غير مفهوم ثم يبدو بعد ذلك أنه كان هو السلوك الوحيد المناسب لهذا الموقف الحرج الذي قابله.

– هذه هي حياته في العالم التي مهّدت لحياته في الرهبنة عام ١٩٤٨ في دير الأنبا صموئيل ثم الظروف التي انتقلت به إلى دير السريان ثم الرجوع في دير الأنبا صموئيل ثم الظروف التي انتقلت به إلى دير السريان ثم الرجوع إلى دير الأنبا صموئيل، ثم العودة لدير السريان، ثم وادي الريان، ومنه إلى دير القديس أنبا مقار.

عام ١٩٦٩:

## مجيء الأب متى المسكين إلى دير الأنبا مقار

يقول الأب متى المسكين:

[إن الآباء جاءوا متعبين جداً من الريان،... إذ أنهم لم يجدوا طعاماً للراحة لسنوات طويلة وشاقة ومضنية،... وأنا لم يقل لي أحد تعال وابن ديراً، فلم يلزمي أحد بذلك، ولكن كل هذا العمل الذي ترونه إنما هو بسبب محبتي للمسيح والرهينة، فقد جئت من الريان متعباً جداً والآن كان ينبغي أن أرتاح. ولكن قلبي لم يرتح أن أرى الرهينة تموت، حيث لا توجد قلاية صالحة للسكن، فقلْتُ إننا نعمل مجموعتي قلاي ثم نرتاح، ولكنني لم أجد راحة منذ ذلك الحين (١٩٦٩) إلى الآن (عام ١٩٨٥)، أي أكثر من ١٦ سنة، فلم نكف عن العمل“].

### الحياة في المسيح تجدد شباب الإنسان، فيزداد مع السنين حكمة ونعمة وقولاً سديداً:

[كلما زاد الإنسان في العمر تتخلّى عنه قوته قليلاً قليلاً دون أن يستشعر ذلك، إلى أن تأتي السنين فينظر الإنسان إلى حياته فيراها قد أكلتها السنين، ثم ينظر أمامه فلا يجد أملاً في الدنيا بعد. فإن كان قد أدّخر في شبابه سنين أعطاهها للمسيح في تقوى وقداسة وصلاة وخدمة وتسييح، فإن أمله يتجدد، ويرى أن حياته إنما ابتدأت تأخذ جذعها في المسيح وكأنه أصبح إنساناً جديداً

بشبابه ورجائه ونظرته للمستقبل القريب والبعيد سيّان، لأنه يسمع الصوت الآتي من فوق: تشجّع فإنك عن قريب ستكون معنا. وهكذا يمتلئ سروراً عوضاً عن الحزن على الماضي، لأن الحياة في المسيح تجدد شباب الإنسان فيزداد مع السنين حكمة ونعمة وقولاً سديداً.]

[لذلك أصبح إكليل خلاصنا النازل علينا من فوق لا يستريح على أجساد مرفّهة، نالت من العالم أمجاداً كاذبة، بل يستريح على أشخاص ذاقوا مرارة الضيق والآلام والاضطهاد، حيث تركت ضربات العدو علامات محفورة في أجسادهم.]

### **مشاعر الأب متى المسكين بعد وصوله إلى دير القديس أنبا مقار :**

ويقول الأب متى المسكين عن مشاعره بعد وصوله إلى دير القديس أنبا مقار، مخاطباً الرهبان الذين أتوا معه من وادي الريان:

[نحن جئنا لكي نتوحد ونستقر ونرتاح من شقاء وتعب الريان، ولكن الرب وضع علينا أن نعمّر بيته، فهل توافقوني على أن أضع يدي في أيديكم ونعمّر هذا الدير الحَرَب، ثم نعود إلى هُدُوننا ووحْدتنا؟ فوافق الجميع ما عدا اثنان]

### **بداية التعرف على رجال الله الصالحين الذين سيخدمون الدير:**

- ثم حدث أنه بينما كان أبونا في حلوان يفكر في بلدوزر لإزالة الرمال، أن طلب أحد الإخوة مقابلته، فقابله. وجلس معه هذا الزائر ودكّرهُ بنفسه أنه كان يزوره عندما كان في دير مار مينا بمصر القديمة (قبل توجّهه إلى دير الأنبا

صموئيل)، فتذكره ورَّحَّب به، ثم لاحظ هذا الأخ أن أبانا كان شاردًا بذهنه، فسأله: ”ما الذي يُشغل بالك يا أبانا؟“ فأخبره عن الاحتياج إلى بلدوزر، فقال له الأخ: ”أنا أعرف مقاولاً كبيراً اسمه ”تادرس روفائيل“، عنده بلدوزرات كثيرة، ولي قريب يعمل عنده فسأُكلمه لكي يقول للمقاول، فربما يساعدكم“، فشكره أبونا. وبعد أيام قليلة اتصل به الأستاذ ”تادرس روفائيل“ صاحب شركة المعادي لإصلاح الأراضي وسأله: ”هل الأب متى المسكين موجود؟“ فأجابه: ”أنا هو متى المسكين“، فداعبه قائلاً: ”لماذا سمَّوك مسكيناً؟“ فأجابه: ”أصلي أنا مسكين“! فقال له الأستاذ تادرس: ”سمعتُ أنكم محتاجون إلى بلدوزر“، فأجابه: ”نعم“. فقال له: ”ولكن إيجار البلدوزر غالي جداً، وربما يكون عندكم شغل كثير فلن تتمكنوا من الدفع“! وفي ذلك الوقت لم يكن لدى أبينا الروحي مليمٌ واحدٌ لكي يفكر في أي عمل، ومع ذلك قال له أبونا: ”كل ما تطلبه ندفعه لك، فتعال إلى الدير لترى العمل على الطبيعة“. فقال: ”غداً سأذهب إلى الدير“.

- وبالفعل جاء إلى الدير، ولما نظر إلى العمل أخفى الله حجم العمل عن عينيه فكان تقديره أن هذا العمل يستغرق أسبوعين فقط. ولما دخل كنيسة أنبا مقار وسجد أمام أجساد القديسين، خرج متغيّراً تماماً وقال للآباء: ”لا أريد شيئاً لإيجار البلدوزر، فسأُحضِّره لكم كما تريدون“! فتعجبنا جداً من هذا التغيير المفاجئ، وقد ذكر السر في ذلك وهو أنه لما سجد أمام جسد أنبا مقار شعر لأول مرة في حياته أن قلبه يفيض فرحاً وسلاماً ليس من هذا العالم، وكأن بركة القديس حلَّت عليه!

- وفعلاً ترك البلدوزر للدير ستة أشهر كاملة أزال خلالها كل الرمال من

حول الأسوار. وقد بدأ البلدوزر عمله يوم رأس السنة القبطية (عيد النيروز)  
الموافق ١١ سبتمبر ١٩٦٩م.

### **توجيه الأب متى المسكين عن كيف ترتفع أسوار الدير والمباني الجديدة في الدير:**

[انتبهوا يا آبائي، فإن أسوار الدير ترتفع بالصلاة وليس بالمال. فلا تصدّقوا  
أبداً أن المباني سترتفع كل يوم شبراً أو اثنين بالحجر والمونة، بل إنها ترتفع  
بالصلاة فقط، ولو توقفت عن الصلاة فلو جاء لكم مال قارون فلن يقوم  
الجدار سنتيمتراً واحداً“].

- وهكذا اكتملت مباني دير القديس أنبا مقار بالصلاة، وازدهرت  
الحياة الرهبانية فيه على مدى من مايو سنة ١٩٦٩ إلى يوم نياحته في  
٨ يونية ٢٠٠٦ (٣٧ عاماً).

## الشيخوخة المستنيرة هبة للعالم

في أواخر أيامه كتب الأب متى المسكين عن الشيخوخة المستنيرة في كتابه "مع المسيح" الذي سجّل في أجزائه الأربعة خلاصة وزبدة خبراته ونظراته في الحياة:

[إنساننا الخارج استلمناه من الزمن. فكل إنسان يعرف تاريخ ميلاده، وكلما زاد الإنسان في العمر تتخلّى عنه قوته قليلاً قليلاً دون أن يستشعر ذلك، إلى أن تأتي السنين فينظر الإنسان إلى حياته فيراها قد أكلتها السنين، ثم ينظر أمامه فلا يجد أملاً في الدنيا بعد. فإن كان قد أدّخر في شبابه سنين أعطاهها للمسيح في تقوى وقداسة وصلاة وخدمة وتسييح، فإن أمله يتجدّد، ويرى أن حياته إنما ابتدأت تأخذ جدّها في المسيح وكأنه أصبح إنساناً جديداً بشبابه ورجائه ونظرته للمستقبل القريب والبعيد سيّان، لأنه يسمع الصوت الآتي من فوق: تشجّع فإنك عن قريب ستكون معنا. وهكذا يمتلئ سروراً عوضاً عن الحزن على الماضي، لأن الحياة في المسيح تجدّد شباب الإنسان فيزداد مع السنين حكمة ونعمة وقولاً سديداً، ويراه الناس فيمجدون الله فيه لأن الشيخوخة المستنيرة هبة للعالم وتقييم مريح ومحّب للإنسان.]

- فكيف ظهرت حكمة "الشيخوخة المستنيرة" في تدبير الأب متى المسكين للربان في دير القديس أنبا مقار؟



## التدبير الرهباني الحكيم للأب متى المسكين

كان التدبير الرهباني للأب متى المسكين لرهبان الدير مأخوذاً من سير آباء الرهنة القدامى رؤاد الرهنة القديسين أنطونيوس ومقاريوس وباخوميوس. وهذه هي مبادئ الرهنة التي عاش عليها أبونا متى المسكين ودبر بها الرهبان في دير القديس أنبا مقار.

### اقتران العمل بالصلاة:

ذكر أبونا مغزى اقتران العمل بالصلاة لما سأل رهبان أجنبيان: “كيف أعيش الصلاة الدائمة أثناء العمل الذي أمارسه لأجل الطاعة؟” فأجاب:

– ”في الحقيقة نحن اخترنا ذلك بأقوى صورة، لأننا نعمل ١٢ ساعة يومياً. لقد اخترت الوحدة في مغارة مدة ٧ سنوات دون أن تُشغلني ولا حتى عصفورة واحدة، ثم وضع الله عليّ مسئولية رهبان مع مسئولية مادية تفوق إمكانياتي وصحتي وأعصابي، وكنت أعود إلى قلايتي لكي أنام كما أنا، ولكن الروح كان قد عودني أن أطيعه، فيقول لي: خمس دقائق فقط اغسل فيها وجهك وقدميك. فأفعل ذلك ثم أقف للصلاة فأجد أن الجسد المتعب قد صار ناراً مشتعلة ودموعاً لمدة ساعة أو ساعتين، ثم أشعر بالتعب فأجلس، وتظل الصلاة مستمرة، وحتى لو نعست أجد أن الصلاة مستمرة حتى الصباح“. لذلك فقد كان يوصي الرهبان أنهم مثل نحميا في العهد القديم «باليد الواحدة يعملون العمل وبالأخرى يمسكون السلاح» (نح ٤: ١٧)،

أما سلاحنا فهو سلاح الصلاة والمهذّب في كلمة الله، أي سلاح الروح.

## **دور العمل في التدبير الرهباني، كما مارسه أبونا الروحي مع الرهبان:**

كان أبونا الروحي يعتبر أن نجاح العمل متوقّف على الصلاة، فيقول: ”الراهب غير الحار روحياً في القلاية يكون عمله فاشلاً، والعمل الجسديّ يكون دائماً بالنسبة له ثقيلاً، ويسبب مشاجرات لأي سبب. والروحاني لا يكون أنانياً أبداً. والحرارة الروحية تُصلح الجسديات وتجعل العمل الجسديّ مثمراً. وأوفق معنى هنا هو: الحرارة الروحية تؤخّذ“.

- ”اليوم الذي تجد فيه حرارتك الروحية ضعيفة، وقد بردت الصلاة في قلبك، وسلامك الداخلي تبتدّد، احذر ثم احذر من أن تمسك عملاً عاماً أو أن تُعطي أوامر أو نصائح للآخرين، لأنها ستكون عديمة القوة عديمة النعمة. والشيطان يستطيع أن يتكلم بفمك بسهولة في هذا اليوم، ويُسقطك في محظورات كثيرة. في هذا اليوم إلزم الصمت والحزن على نفسك جاعلاً خطاياك أمام عينيك طول النهار“.

- ”الحار بالروح في الكنيسة وفي القلاية، حار في العمل أيضاً ولا يغضب من أجل عامل أو عمل. فالعمل يصير مصدر غضب وشقاق وأنانية بسبب الفتور الروحي الذي يُصيب الآباء بسبب عدم الطاعة. فعندما أقول مثلاً: راحة كل أسبوع، فأنا أقول ذلك مندوباً عن المسيح حتى لا يوجد شر وأنانية وتعب ولا يصبح النير ثقيلاً لا يُطاق، لأن العمل أصلاً كان عقوبة، فقد كان آدم قبل السقوط لا يعمل هذا العمل المجهد، ولكن بسبب الخطية صارت الأرض تُخرج شوكةً وحسكاً وصار الإنسان يأكل خبزه بعرق الجبين. أما إذا

تصالح الإنسان مع الله يصير كآدم قبل السقوط، بأقل جهد يكون له إنتاج والخلقة تُطيعه“.

### العمل والصلاة وحدة واحدة:

- ”الجمال هو أن يكون العمل والصلاة وحدة واحدة. ما أهمية العمل؟ فحتى ولو فسد، فالمهم أنك أنت ستنجح. لكنني واثق أنك إن كنت عابداً وفرحاً وحاراً، فحتى لو تهاونت في شيء رغماً عنك، فإن العمل ينجح! كما نصلّي في المزمور: «الأرض أعطت ثمرتها فليباركنا الله إلهنا» (من مزامير صلاة باكر: مزمور ٦٦: ٦٦) (حسب السبعينية). هذا هو مزمور الفرح الذي أرتل به في العمل. وبعدها أتعب أرتل للرب في القلب: "نعود بالفرح حاملين أغمارنا"، هذا هو عزّاؤنا، فالشغل الجسدي يكون على أساس الملء والفرح الروحي، وإذا لم يوجد الفرح والسلام تُهين وتفضح نفسك، إذ تكون مُعبّساً مغموماً متضيقاً. عندما يكون هذا حالك، قِفْ تحت شجرة أو اذهب إلى قلايتك وارفع يديك وأنت تذوق القوة، كما فعل موسى النبي عندما كان يدعّم يديه اثنان يرفعانها ويسندانها. إننا محتاجون إلى تدعيم الروح القدس، وهو الذي يدعّم يدك. إذاً، فارفع يدك وأغلق فمك وأنت ترى“!

- ”رفع اليدين نحو السماء يحرك ليس الأرض بل السماء. ارفعوا أيديكم إلى فوق إلى رب السماء يأتاكم العون «رفعْتُ عينيّ... من حيث يأتي عوني» (مز ١٢١: ١). العمل الروحي يجعل العمل الجسدي تسييحاً صامتاً. يمجّد المسيح ويعلن عنه. المسيح يتمجد عندما ينطق العمل بالصلاة والمحبة. يقول الناس: إننا في كل مكان في الدير نرى ربنا. لماذا؟ لأن العمل قد تم بالمحبة. كنا نعمل ونحن متعبون، ولكننا كنا نصلّي، فخرجت التسبيحة

ولصقت بالحجر والشجر، فأعلنت هذه أيضاً مجد المسيح“!

## خبرة أبينا الروحي في وصية الصلاة بلا ملل وسط العمل الشاق:

- أما خبرة أبينا الروحي عن الصلاة بلا ملل وفي وسط العمل وبعده؛ فقد شرحها لبعض الضيوف (في يونيو ١٩٧٧) بحضور بعض الرهبان الذين دَوَّنوا كلامه حيث قال: ”كنتُ في بداية رهنبتي أقرأ كثيراً هذه الآية: «ينبغي أن يُصَلِّي كل حين ولا يُملَّ» (لو ١٨: ١)، ولم أفهم معناها إلا بعد أن اختبرت فعلها وقوتها في حياتي. إذ أنه بعد يوم عمل شاق بالدير، حيث كنتُ أشرف على العمال من السادسة صباحاً حتى السابعة مساءً، رجعتُ إلى قلايتي وأردتُ أن الرب يعزيني ولو بكلمة. ففتحتُ الإنجيل وإذا بي أجد هذه الآية أمام عيني: «ينبغي أن يُصَلِّي كل حين ولا يُملَّ» (لو ١٨: ١). إنني طلبتُ تعزيةً بعد جهد شاق في العمل، وإذا بالرب يطالبني بمزيد من الجهد على مستوى العمل الروحي والصلاة. فقلتُ بلحاجة: "يا رب، أتوسل إليك أن تعطيني قوةً ومعونَةً لكي أنفذ هذه الآية التي تُطالبني بها في هذه الليلة". وبالفعل استرحتُ قليلاً ثم غسلت وجهي ووقفتُ أصلي بعد أن صممتُ ألا أكف عن الصلاة بمعونة الله مهما كانت الأسباب التي تؤدِّي إلى الملل في الصلاة“.

- ”وبعد ساعة تعبت قدماي سريعاً من الوقوف، وابتدأتُ أشعر بصداع ضاغط على رأسي، ولما دامت هذه الآلام لبعض الوقت شعرتُ بأن نفسي مدفوعة إلى الملل، ولكنني غصبتُ على نفسي وقلتُ: مهما كانت الآلام فسأستمر في الصلاة ولن أتوقف قط. ويا للعجب مما حدث! فبعد وقت

قصير جداً من هذا التصميم تلاشت تلك الآلام تماماً، بل إنني وجدتُ أن قوةً جبارةً تملأ كل كياني حتى استطعتُ بنعمة الله أن أقضي تلك الليلة كلها واقفاً في الصلاة وبحرارة وتعزية وخفة فائقة! ورغم أنني كنتُ أعمل اليوم كله وقضيتُ الليلة كلها واقفاً، فلم أشعر بتعب إطلاقاً. ومن ذلك اليوم تأكدتُ أنه توجد قوة روحانية تلازم الوصية، ولا تُعطى إلا لمن استطاع أن ينفذها بأمانة ودقة وإصرار!

### الكيفية العملية لربط العمل بالصلاة:

– ويقول أبونا أيضاً عن كيفية ربط العمل بالصلاة:

”يكون ذلك بأن تعمل حسب حدود العمل المضبوطة، ثم يصير قلبك عملاً بالصلاة بقدر الإمكان. فيربط الصلاة بالعمل يتقدس العمل والرب يبارك في الدير وفي الزرع والضرع، ويبارك الآباء ويزيد عددهم وتنتعش الرهبنة وتمتد. ولكن كيف تمتد إلا بالحببة الأخوية والالتزام بالصلاة أثناء العمل فلا يفسد؟ كما قال الرب عن الذين يطيعونه: «وأنتهر من أجلكم الأكل (أي السوس)، فلا يُفسد لكم ثمر الأرض» (ملاحي ١١: ٣). تصوّر أنه ينتهر السوس من القمح فلا يسوّس أبداً! إذاً، فإن هذه الحياة المادية تأخذ بركة من الصلاة ولا تفسد. يحكي الناس عن نجاح عملنا وزراعتنا، لماذا؟ أليس بسبب اقتران العمل بالصلاة والحب؟!

– ”فمثلاً سألني مرةً الدكتور يوسف والي وزير الزراعة عن نسبة النجاح في هذه الشتلات، فقلتُ له: ٩٥٪. فقال: "لا يمكن، فمعروفٌ أنها لا تزيد عن ٧٠٪". فقلتُ له: "عدّ الشتلات يا سيادة الوزير"، فعدّها ودُهِش وقال: "لا

بقى، إنها صلواتكم!" نعم أنا موافق على أنها صلواتنا، فإن الله هو الذي يعمل لا نحن. فإن كان ربنا قد بارك العمل أو الرهبان، فما هذه البركة إلا نتيجة الصلاة مع العمل، فيصير كل شيء بمجد الله ويُخبر بعمل يديه: «لا قول ولا كلام، لا يُسمع صوتهم، في كل الأرض خرج منطلقهم وإلى أقصى المسكونة كلما هم» (مز ١٩: ٤، ٣).

### الغاية الثانية من العمل: كشف النفس للراهب:

- أما الغاية الثانية من عمل الراهب خلاف إظهار المحبة لله وللإخوة والالتصاق بالرب بالصلاة؛ فهي كشف نقائص الراهب، وتعرفه عليها، والعمل على التخلص منها بالتوبة وإماتة الذات وكشفها لأب الاعتراف: "نحن لا نشتغل لكي نتسلى أو نفرّج عن أنفسنا أو حتى كضرورة ملزمة لظروف حياتنا، بل إننا نشتغل من باب إماتة الذات، وهذا يُعتبر ركناً من أركان الرهبنة. ويلزم أن يكون العمل إلى حدّ الإجهاد وفوق الطاقة بصبر وجهاد لكي يُعتبر إماتة. فالعمل الجسدي أنسب وسيلة للراهب لكي يسلك كل يوم في طريق الإماتة".

- "وحتى لو فرضنا أن الراهب مرض بسبب عمله، فهذا لا يكون غريباً عن حياته، وحتى لو مات فهذا أيضاً لا يُخرجه عن الهدف الذي يسعى إليه وهو أن يُضَيِّع نفسه لكي يجدها. هذا هو الطريق الحقيقي للراهب أن يُهلك ذاته من أجل الله لكي يخلص. وأما من وجهة نظر عامة، فإن العمل الجسدي العضلي مفيد للراهب في أمور كثيرة، فهو يشدّد جسده، ويقوّي عضلاته، ويحلّ عُقْده النفسية، ويُلاشي ذاتيته، ويُنشّط نفسه في العبادة، ويدخل إليه الفرح والمسرة في كل أعماله".

- ”وإذا تخلل العمل مشاكلٌ تثير الراهب، فهنا تنفضح كل أوجاعه الكامنة من أنانية وكبرياء وعدم احتمال وغضب ... إلخ. وطوبى لمن يعرف ضعفه ويعترف به لكي ينمو في طريق الحياة“.

- كما قال أيضاً الأب متى في ذلك: ”«حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا. لأننا نحن الأحياء نُسلم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢ كو ٤: ١٠، ١١). هذا قانون من قوانين العقيدة، فالعقيدة عبارة عن عدة قوانين إن سلكتنا بها نحي. فحسب هذا القانون، فإنه موضوع علينا بالأمر الإلهي أن نُسلم دائماً للموت من أجل يسوع، وإلا فإننا نبقى غير تابعين للعقيدة ولا الإنجيل كله. فكل مَنْ عاشوا في المسيح وتألّوا من أجله وحملوا في حياتهم وأجسادهم إماتة الرب يسوع، أي علامات الضرب والإهانة والموت، فهم شهودٌ لقيامه الرب يسوع وثُستعلن حياة يسوع في أجسادهم“.

### **الراهب الحديث لا يصح أن يطلب الوحدة بعيداً عن العمل:**

**يقول قدس أبينا الروحي:**

- ”تستطيع في الوحدة أن تكتشف أخطائك وتقدم توبة حارة من القلب فيُغفر لك؛ أما لكي تتحد بالمسيح فلا بد أن تبذل نفسك، لا بد أن تجحد ذاتك، وهذا لا يتم إلا مع الآخرين. أقصى بذل يمكنك أن تقدمه في الوحدة يمكن للذات أن تسرقه لنفسها وتفقد أنت اتحادك بالمسيح. أما في المجمع، فأبي عمل صالح تقدمه تحتاج فيه إلى بذل ذاتك، فتقبل الشتيمة والمحقرة

والإهانة بكل صورها في المجمع برضى ومسرة، وهذا دليل أكيد على إماتة الذات التي هي علامة الاتحاد بالمسيح“.

**وفي موضع آخر قال قدس أبينا الروحي:**

- ”من الخطأ أن يطلب الراهب المبتدئ التصريح له بالسكون والوحدة. فقد أتيت إلى الدير لكي تُسلمَ للموت ولكي تقل قيمتك هنا، فإنهم يوزعون هنا ’بهدة‘ لا كرامات. هنا يتسلط الروح على أخيك الراهب لكي يسلبك كرامتك (حسب تصوُّرك أنه يفعل هذا)، ولكن الروح في الحقيقة يريد أن يُذيقك الملوكوت ويُدخلك إلى المجد الأبدي. ولكنك لا تفهم ذلك، فتقول في نفسك: لماذا يضطهدني هذا الراهب؟ فالرهينة فيها تحمُّل لكي تتشدَّد، وإلا فكيف ستحارب شياطين؟! وكيف ستحب عدوك؟ فالروح يرسل لك التجربة وأنت تريد أن تُبعدها عنك، وتظل تتجنب أن ترى أخاك وتطلب نقلك إلى عمل آخر، فإذا نُقلت فلن تجني فائدة“.

**العمل يُظهر إماتة ذاتك، وحياة يسوع فيك:**

**ويُكمل أيضاً:**

- ”العمل هو الذي يُظهر إماتة الرب يسوع فيك وحياة يسوع فيك، وإلا فكيف ستموت عن الكرامة وعن شكلك السابق؟ وكيف ستأخذ الشكل الجديد كما يقول الوحي: «تغيروا عن شكلكم» (رو ١٢: ٢)؟ فكيف تتغير إن لم تتصادم مع ذاتك العنيدة التي هي العقبة في خلاصك وأبديتك؟ فيا لنعيمك لو اشتغلت في خدمة متعبة، لأنه ستتكشف لك عيوب ذاتك وعنادها وكذبها وكبرياؤها قليلاً قليلاً، وتظل أنت وراءها حتى تتخلَّص منها.



وعندئذ ستقول: 'كان لي أب هو الذي ربّاني صحيح، وعرف كيف يخلصني من الأمور التي لم يعرف أن يخلصني منها لا أبي ولا أمّي الجسداني، ولا الكنيسة، ولا العالم، فقد خلّصني من ذاتي. فأنا كأب أجعلك تعمل في منطقة صعبة وعيني عليك، وفي النهاية أوصّلك للمسيح رجلاً متشدّداً متمنطقاً على حقوك كما قال الرب لأيوب: «أشدّد الآن حقّوك كرجل» (أي ٣: ٣٨)“.

- ”فإن كنا نهرب من العمل وأتعبه وآلامه ومن الضيقات؛ فكيف سيتحمل الجسد إِماتات الرب يسوع؟! وكيف ستشهد للمسيح وتصل إلى الملكوت؟ هل الكرامة هي التي ستوصلك؟ كما يلزمنا أن نحمل هذه الإِماتة في الجسد كل حين، وإلاّ تظل الأيام غير محسوبة في حياتك الروحية «نحن الأحياء نُسلّم دائماً للموت من أجل يسوع» (٢ كو ٤ : ١١). أنا لا أرى راهباً منكم مستعداً أن يموت من أجل يسوع، بل أسمع تذرّراً وشكوى من التعب الجسدي. فمثلاً يقول لي راهب: أريد منك أن تنقلني إلى العمل الفلاني. فأقول له: حاضر. ثم أقول في نفسي: يا للخسارة! فإن هذا الراهب سيرسب ويُعيد السنة، فالمسيحية آلام وموت. الله يكوّن له رجالاً لأن وراءكم رسالة ضخمة، فإن لم نحتمل الإِماتات والطرح حتى إلى الأرض جسداً ونفساً من الكبير ومن الصغير؛ فكيف نكون شهوداً للمسيح؟ فالرهينة ليست غاية، بل هي أولاً وأخيراً شهادة للمسيح. فإن لم تتدرب في هذه الشهادة فإلى أين ستصل؟ الثوب الأسود والذقن لن يخلّصانك ولا حتى الاسم، لأن اسمك الجديد الذي ستأخذه في الملكوت، سوف يتناسب مع إيمانك وعلاقتك بالمسيح“.

## كمال وغاية المحبة الأخوية في حياة الرهبنة:

يعتبر أبونا الروحي أن كمال وغاية المحبة الأخوية هو الاتحاد بالرب وبالقريب. فيقول عن محبة الراهب لأخيه التي تؤهله للاتحاد بالمسيح:

- قال مار إسحق ما معناه: "تستطيع أن تحصل على غنى الروح في الوحدة، أما الاتحاد بالمسيح فلا يمكن إلاً بمحبة القريب". محبة الأخ هي أن تسهّل له طريق خلاصه ولا تلقي معثرةً أمامه وتسعى كل حين إلى ما هو لبنائه روحياً حتى تتحدا في المسيح.

- إن كنتَ تصلّي من أجل إخوتك ومن أجل ضعفاتهم بحرقه قلب؛ فهذا مقبولٌ جدّاً أمام الله. وهذا دليل أكيد على أن فيك روح المسيح، وأنك سوف تبني نفسك وتبني أخاك.

- الراهب مدين لإخوته في المجمع، لأنه بواسطة أخيه يستطيع أن يتحد بالمسيح ويكمل خلاصه. ولذلك فإن كنتُ أحب أخي، فهذا أمر واجب وجوهري لخلاصي.

- محبتي لأخي تُلزميني أن أقطع مشيئتي وأتمم مشيئة أخي لكي أريح قلبه وأمكنّ له السلام ولا ألقى أمامه معثرة. وقطع المشيئة للأخ من أجل الرب هو علامة على جحود الذات التي هي علامة الاتحاد بالمسيح.

- الراهب في المجمع، لو نام في اليوم ٨ ساعات وفي ١٦ ساعة يعمل من أجل راحة إخوته ومحبّتهم من قلب طاهر، أفضل من المتوحد الذي ينام ساعة واحدة ويظل ٢٣ ساعة يصلي ويقرأ لأجل خلاص نفسه فقط. لأن الذي في المجمع بهذه الصورة يدل على أن روح المسيح فيه، روح البذل والمحبة التي

هي دليل الاتحاد بشخص الرب يسوع.

- الراهب الذي ترك العالم من أجل الرب، لا بدّ أن يؤمن أن كل ما يأتي عليه هو بسماع من الرب لأجل خلاصه إن كان تأنيب أو إهمال أو احتقار من إخوته أو تشجيع أو مؤازرة، ويتقبل كل شيء كأنه من يد الرب لخلاصه، حتى لو كان الأخ الذي يعامله غير جادّ في الأمر أو يتكلم باستهتار، فلا بدّ أن يستمع له باهتمام ويحاول أن يتمم مشيئته من أجل الرب. ففي هذا الجو المقدس لا بدّ أن يعمل الرب في النفوس إذا رأى أنها بسيطة محبة ومتضعة بعضها لبعض، ولن يسمح بالخسارة الروحية.

- أحياناً يشير أحد الآباء على أخيه بعمل شيء بطريقة معينة، ولكن الأخير تكون ذاته لا زالت حية، وهو لا يريد أن يتنازل عن مشيئته الخاصة، فيرفض الكلام كله ويصدّ أخاه بكلمة موجعة، فيخسر أخاه ويخسر الطريق إلى الملكوت، لأن فرصة محبة القريب وإماتة الذات بجهد المشيئة الخاصة قد قدّمت له ولكنه بجهالة طرحها عنه.

- أحياناً يكون رأيك صحيحاً جداً وباستنارة الروح القدس ولا يمكن إلاّ أن تتممه؛ ولكن لأجل أخيك تتنازل عنه وتتمم مشيئته وربما كان خاطئاً. وأنت راضٍ عن ذلك بمسرة قلب ومتحملاً المسؤولية أيضاً والملازمة من الجميع! هذا هو طريق الاتحاد بشخص الرب يسوع.

- وهكذا اعتُبرت الشركة في آلام المسيح في هذا العالم الشرير نصرةً على العدو ووسيلة لقلب موازينه. فمن يضطهده الشرير ويسكب غضبه عليه، يُحسب لهذا الإنسان أنه أكمل الجهاد وحاز على رضا الله ومسرة المسيح. وعلى أساس فلسفة الآلام هذه، اعتبر بولس الرسول أن الآلام هي نصيبنا

الفاخر وكأننا موضوعون لها، أي أن الآلام أصبحت نصيبنا الفاخر وشهادةً ضد العدو توهّلنا لنكون من مختاري الله المحبوبين. فالقديسون محسوبون أنهم صورة للغلبة على هذا العالم بسبب الآلام التي تكبّدوها من بغضة العدو، تماماً كما حُسب صليب المسيح غلبة ضد العالم والعدو.

- لذلك أصبح إكليل خلاصنا النازل علينا من فوق لا يستريح على أجساد مرفّهة، نالت من العالم أمجاداً كاذبة، بل يستريح على أشخاص ذاقوا مرارة الضيق والآلام والاضطهاد، حيث تركت ضربات العدو علامات محفورة في أجسادهم.

- لذلك أصبح من غير اللائق، بعد اليوم، أن نتأفّف من الآلام أو نتهرب من مضايقة العدو والناس، لأن نصيب فخرنا في هذا الدهر هي آلامنا التي نتكبدّها فرحين إذ نُحسب من المختارين الذين جُعِلوا هدفاً للعدو، لأنه إن كان المسيح هو حبيبنا الذي نتألم لأجله، فالشيطان هو عدونا اللدود الذي ينتقم من المسيح الذي فينا.

- وهكذا أصبحت آلامنا وشدائدنا ليست محسوبة ضدنا، بل محسوبة لنا كنصرة، برغم أنف العدو، فالذي يتألم وهو مؤمن بالمسيح اعتُبرت آلامه حسب الكتاب **موهبة أي عطية من عند الله** تهيئ الإنسان أن يكون شريكاً في آلام المسيح، فيحسب بالتالي مستحقاً لرضا الله ومُكمّلاً لخطة خلاص يسوع المسيح، إذ تكون الشركة في آلام المسيح هي بمثابة شهادة إيمان، وعلةً لانسكاب نعمة الله.

## الاستعداد للغروب البهيج والرحيل

١- تعهّد أبونا الروحي مع نفسه ألا يأخذ أية وظيفة أو رتبة كهنوتية، حتى أنه لما دُعي لرسامته كاهناً في دير السريان امتنع ورفض ذلك بشدة. ثم رُسم رغماً عنه. (لذلك لم يكن يؤدي صلوات القداس طيلة حياته إلا ما لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة)

٢- وبعد انتقاله إلى دير القديس أنبا مقار عام ١٩٦٩، طلب نيافة الأنبا غريغوريوس مقابلته لأمر هام وكان ذلك حوالي عام ١٩٧٠. فلما وصل واستقبله أبونا متى (وكان أبونا متى المسكين في ذلك الوقت في بيت التكريس بخلوان)، بادره أبونا بقوله: "أنت قادم لتعرض عليّ رغبة قداسة البابا كيرلس أن يرسمني أسقفاً على لندن". وُثمت الأنبا غريغوريوس وردّ قائلاً: "وكيف علمتَ بذلك؟ فهذا الأمر لا يعرفه أحد إلا قداسة البابا وأنا، ولا يعرفه أحد غيرنا نحن الاثنين (كان قداسة البابا كيرلس يحجب مثل هذا الخبر عن آخرين حتى لا يحاول أحد أن يعطل تنفيذ مثل هذا الاقتراح)". وقال أبونا متى للأنبا غريغوريوس: "أعتذر عن هذا، لأنني لست لهذه المناصب". ومضى الأنبا غريغوريوس من عند قدس أبينا الروحي متعجباً كيف عرف أبونا الروحي بهذا الخبر.

٣- وأيضاً لما رُشّح للبطريركية عام ١٩٧١ ورفض، كان يضع أمام عينيه دائماً مبدأ القديس يوحنا ذهبي الفم القائل: "عجبي على رئيس يخلص!"

- لذلك حينما علم بهذا الترشيح عن طريق آخرين، جمع الرهبان

أبونا متى المسكين من الطفولة الملائكية إلى الشيخوخة المستتيرة - ٥٣

وأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُوَافِقٍ عَلَى ذَلِكَ إِطْلَاقًا، وَأَنَّهُ سَيَتْرَكُ الدَّيْرَ لِيَعْتَكِفَ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ، حَتَّى يَصَلِّيَ لَكَ يَرْفَعُ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا النَّيْرَ الصَّعْبَ. وَبِالْفِعْلِ تَرَكَ الدَّيْرَ وَاخْتَلَى بَعِيدًا مُصَلِّيًا بِصَرَخٍ وَدُمُوعٍ أَن يَعْنِيَهُ الرَّبُّ مِنْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَةِ الْكُبْرَى.

- وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَصَلَاتِهِ وَفَرَحَ مَتَهَلِّلًا جَدًّا لِهَذِهِ الِاسْتِجَابَةِ. وَفِي تِلْكَ الْمُنَاسِبَةِ كَتَبَ لِلرَّهْبَانِ قَائِلًا:

”أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ رِسَالَتِي هَذِهِ بِاعْتِبَارِهَا تَذْكِيرًا لَدَهْنِكُمْ لَمَّا سَبَقَ أَن قُلْتُهُ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا بَيْنَكُمْ، أَن رِسَالَتِي فِي الْحَيَاةِ هِيَ رَهْبَانِيَّةٌ خَالِصَةٌ، وَأَنِّي لَنَ أَقْبِلُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ تَرْشِيحَ نَفْسِي لِأَيِّ مَنْصَبٍ مِنْ مَنَاصِبِ الْكَنِيسَةِ، ذَاكِرًا عَهْدِي الْأَوَّلَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ وَطُئْتُ فِيهِ قَدَمَايَ تَرَابَ الدَّيْرِ أَن أَكُونَ وَأَبْقَى وَأَمُوتَ رَاهِبًا. لِذَلِكَ اضْطَرَرْتُ إِلَى أَن أَخْلُدَ فِي مَكَانٍ هَادئٍ بَعِيدٍ لَكَ أَقْضِي مَا بَقِيَ مِنْ عَمْرِي أَصَلِّي وَأَبْكِي وَأَتُوبُ حَتَّى أَمُوتَ. وَأُظَنُّ أَن أَحَدًا مِنْكُمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يَنْكُرَ حَقِّي فِي الْمَوْتِ عَنِ الْعَالَمِ وَالنَّاسِ وَالصَّمْتِ وَالْبُكَاءِ“ (بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٨)

- ثُمَّ لَمَّا سَمِعَ بِخَبَرِ اسْتِعَادِ اسْمِهِ مِنْ قَائِمَةِ الْمُرَشَّحِينَ (كَمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ "السِّيَرَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ"، ص ٣٤٣، ٣٤٤) كَتَبَ يَقُولُ:

”سَلَامٌ مِنَ الرَّبِّ. السَّلَامُ مِنَ الَّذِي نَظَرَ إِلَى ذُلِّي وَغَرِبَتِي وَمَسْكَنَتِي، وَنَجَانِي مِنْ تَجَرِبَةٍ كَانَتْ كَفِيلَةً أَن تُوْدِيَ بِخُلَاصِي وَتُوْذِي خُلَاصَكُمْ جَمِيعًا. لَهُ الشُّكْرُ وَالْحَمْدُ وَالتَّسْبِيحُ مِنْ قَلْبٍ مُخْلِصٍ سَيُظَلُّ يَبْكِي فَرَحًا وَيُشْكِرُ مِنْ خِلَالِ الدَّمُوعِ حَتَّى آخِرِ نَسَمَةٍ مِنْ حَيَاتِي. الْيَوْمَ كُتِبَ لِرَهْبَنَتِي

عهدٌ جديدٌ، ليس كالعهد الأول الذي تحوطه أخطار الضلالة، وعلى الأقل إمكانيات الغش والحيلة لكي تنزكي نفسي عند أهل الدنيا، ثم تفقد، دون أن تدري، تركية الناظر إلى المتواضعين. والآن أبدأ حياة كلها حرية، كلها أمل في رهبة توحيدية مطلقة معكم وبكم وفي وسطكم“  
(بتاريخ ١٩٧١/٩/٢٧)

- كما أنه أوصى الرهبان قائلاً: ”يا أحبائي، أوصيكم بالغرض المستقيم الذي ابتدأت به في الأول، وهو أن نبيع أنفسنا للمسيح ولا يبقى لنا غرض سوى تمجيد اسم الله، فتصير سيرتنا في السماوات... فيكون في نيتنا وضميرنا أن سيرتنا سماوية ولا نريد شيئاً على الأرض، ويصير حبنا للمسيح وليس لمجد الناس“.

## وأخيراً:

### نجاح الإنسان يظهر بعد موته وليس في حياته:

- واستمر أبونا متى المسكين في خدمته العليا للدير وللرهبة والرهبان لمدة ٤٤ سنة بلا كلل، حتى وصل الدير في مبانیه ورهبته إلى ما وصل إليه ببركة المسيح وشفاعة ومؤازرة القديسة العذراء مريم الدائمة البتولية وآباء الرهبة القديسين الذين عاشوا بتوليتهم في أرجاء برية شبيهة.

- وفي حديث أدلى به الأب متى المسكين لمندوبة وكالة آسوشيتد برس في أول فبراير سنة ١٩٧٦، سأله مندوبة وكالة الأنباء:

مَن الذي سيخلفك بعد انتقالك؟ وكان ردُّه كالآتي:

- [لقد كان جهادي وتركيزي الشديد واهتمامي أن أترك مبادئ وحياءً لكل واحد يمكنه أن يحيها. وما نجحتُ فيه أن الرهبان يستطيعون أن يتبنَّوا جميع ما لديَّ من مبادئ ومحبة وبذل وجهاد ودقة في الأمور المادية والروحية، لأنِّي أسلم النوعين معاً، وهذه نعمة من الله وموهبة أن أترك جماعة تعيش بمبادئ متآلفة. وهذا هو النجاح أن أترك مبادئ حيَّة للناس لتعيش بها.

- ودائماً أقول إن نجاح الإنسان يظهر بعد موته وليس في حياته. فإن نجاح أي قائد يظهر بعد موته، فإن كانت العجلة تدور بنفس القوة، فيكون هذا القائد قد عاش في الله، ومبادؤه كان يستلهمها من الله، واستطاع أن يوصلها للآخرين. أما إذا كان سيترك شخصاً واحداً فقط، فهذه ستكون مجرد تلمذة عادية.]

(عن كتاب: أحاديث الأب متى المسكين، ص ٣٢، مع وكالة آسوشيتدبرس في أول فبراير سنة ١٩٧٦) وقد نُشر هذا الحديث أولاً في مجلة مرقس، أعداد: يناير، فبراير، مارس سنة ٢٠٠٧ قبل صدوره في هيئة كتاب، نُشر باسم: "أحاديث الأب متى المسكين.



## الانطلاق والرحيل إلى المسكن الأبدي

- وقبل نياحته بثلاث سنوات تقريباً اعتكف أبونا متى المسكين في استراحة الدير بالساحل الشمالي. وقبل انتقاله بثلاث أسابيع أحس ببعض الآلام في صدره. وفي المستشفى الخاص بالدكتور رشاد برسوم أحس بقرب انتقاله، فترجّاه الدكتور رشاد بالحضور للمستشفى ليتمكن أن تكون صحته تحت الملاحظة. فذهب. وبعد ٣ أسابيع تقريباً طلب رؤية الدكتور رشاد، وذلك ليقدم شكره له. وظن الدكتور أنه ينوى مغادرة المستشفى، لكنه صرح له قائلاً: "لئلا لا أستطيع رؤيتك مرة أخرى"، وبعد يومين أسلم روحه الطاهرة في يديّ الله وهو في المستشفى يوم الجمعة الثامن من يونيو ٢٠٠٦، ليلتقي بعريس نفسه وروحه التي هامت بالمسيح واشتاقت إلى اللّقاء الأبدية معه وجهاً لوجه والتي لا انفصال فيها ولا بُعاد.

❖ اقرأ المزيد عن حياة أبينا الروحي القمص متى المسكين  
وبالتفصيل في الكتاب الذي صدر عن سيرته وأعماله:

## أبونا متى المسكين

السيرة التفصيلية

أو كتاب السيرة الذاتية الذي كتبه قدسه بنفسه:

## أبونا القمص متى المسكين

السيرة الذاتية



تُطلب هذه النبذة المجانية وباقي مؤلفات الأب متى المسكين من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين، محرم بك - تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

[www.stmacariusmonastery.org](http://www.stmacariusmonastery.org)

أو عن طريق مكتبة الدير